

رواية

كلاحين الجبل

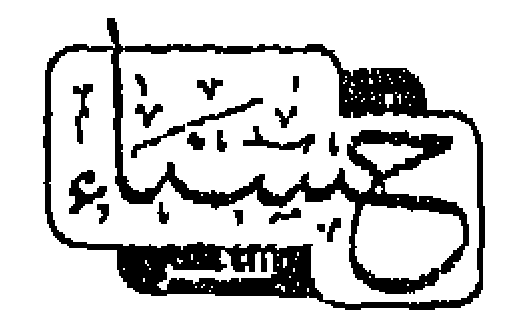
أمير مصطفى

إهداء ٢٠١٦
دار حسناء
جمهورية مصر العربية

كلاحين الجبل

ديوى : 813
مصطفي ، أمير
كلاحين الجبل / أمير مصطفي
الإسكندرية : حسناء للنشر
ط1 / 2015
140 ص ، 15 X 20 سم
تدمك : 978-977-85187-1-9
1- قصص
2- كلاحين الجبل
أ- أمير مصعطفي
رقم الإيداع : 7380 / 2015

{ جميع الحقوق محفوظة © }

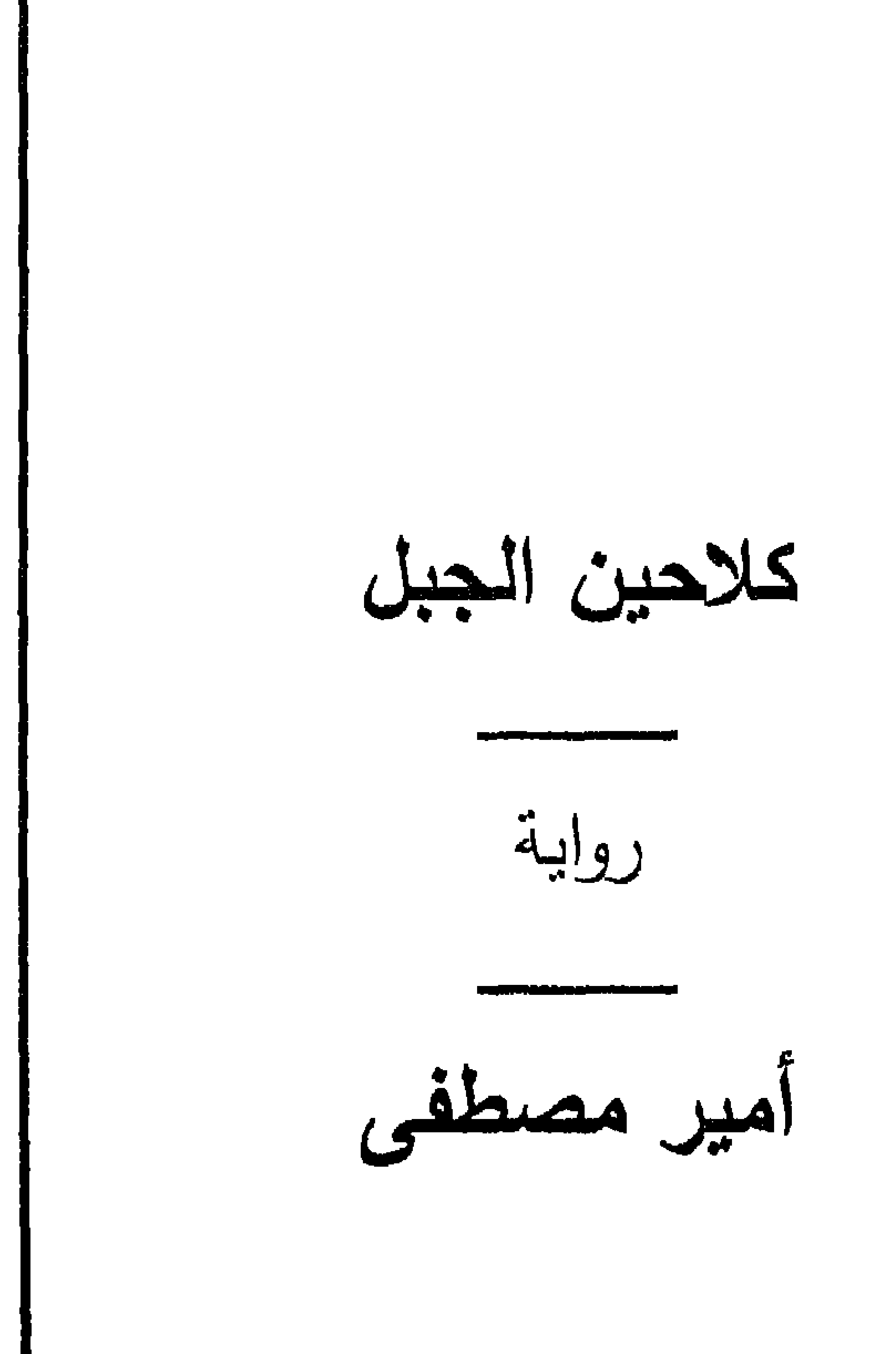


الإسكندرية ، ج . م . ع
01018831361
01022842898

المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار

الإخراج الفنى : أمير مصطفى



كلاحين الجبل

رواية

أمير مصطفى

ـــ كتبت فى العام 2010 ــ

إن أصدق قبلة يتلقاها الرجل فى حياته ..
هى قبلة على خده من زوجته الخائنة
إثر توديعها إياه قبيل سفره الطويل .. "

{1}

لا يمكن وصف البكرى أبداً بالسذاجة ، وما كان لصبور أن يعبث معه ويظنه أبلهًا .. سيبقى غافلاً عن فعلته ويتركه يمـــرح بمالــه ، وفراشه المستورد ــ أمريكى الصنع ــ مع تلك العاهرة التى لا تشبع أبداً ..

بلقيس .

بلقيس ..

حلم كل رجال (على سالم) الماشى على عقبين فى حمرة البرقـــوق الصابح ، واستدارة بنورة الساعات الإنجليزية متقنة الصنع.

بلقيس ...

عجينة الأنوثة وخميرة الدلال اللتان صنع منهما باقى نساء العالم.

بلقيس ...

مهرة كلاحين القبلية الحرنانة العاصية للترويض على أى شارب.

الأنثى التى ما إن تظهر على باب دارها حتى ترجف قلوب النساء ، وتذهب عقول الرجال وتختال عقول المـــراهقين مـــن فتنتـــها .. وللأسف زوجته.

حتماً كان أبوه محقاً عندما عارض زواجه منـــها لدرجـــة ضـــربه بالكرباج السودانى ، وهو (شحط) فى الجيش يرتـــدى (الأفـــرول الميرى) ، ويفتح ثغرة فى عمليات الاستنزاف ، حتى عصاه البكـــرى وتزوجها دوناً عن كل حريم (على سالم) ، فضربه أبوه بـــالنبوت ليكسر له ضلعين ، ويرقده فى المستشفى ستة أشهر حتى يحن قلبـــه أخيراً على ولده فيسامحه.

لكن البكرى ، كان مخطئاً حينما دلّل صبورًا حتى أفسده.

صبور ..
الذى لم يصن حرمة الدم ، ولا لحم أخيه .
صبور النجس الذى لا يغتسل من جنابته الحرام لعدة أيام متتاليـــة ، نظراً لضيق وقته بين الخيانة والأحرى.
صبور الذى حجز مكاناً فى جبانة النجع لهما معاً.
الليلة يقتلهما وهما يتقافزان على مرتبته (التاكى) من نشـــوة المتعـــة الحرام ، ثم يوارى الجثتين فى الأرض البحرية ويفسر غياب صـــبور للجميع بسفره للجامعة ، وحينما يطول غيابه يلتاع ويجزع ويهرع يبحث عنه هو وكل أقاربه حتى يصبح صبور .. خرج ولم يعد.

أما بلقيس ، فلم يعرف بعد بماذا سيبرر اختفاءها ، ولو كان الأمـــر بيده لذبحهما معاً فى وضح النهار على رؤوس الأشهاد ليغسل عاره ويسكر بدمائهما ، ولكن ما باليد حيلة ، فلا يجب أن تناله الحكومة ، فمن يبقى لابنتيه من بعده ؟
هالة وصفية ..
أجمل بنات النجع اللتين ورثتا جمال بلقيس وروعة إشراقتها حينمـــا تضحك.
بلقيس .. التى لم تراعى أمومتها وتركت فرجها لصبور كى يلعقه ، حتما كان يلعقه و يعضها من حلمتها ، ألم تكن تطلب ذلك منـــه وكان يضربها ويتهمها بالعهر ، ما كانت تمنحه (شرفها) لو لم يكن أغواها بأساليب الأوساخ والشواذ التى تعلمها من مومسات القاهرة وأجنبيات شرم الشيخ.
الليلة يا بلقيس آخر ليالى خيانتك ، عسى أن تستمتعى بها لتعوضى الخمس عشرة سنة اللواتى قضيتها حافظة فرجك له وحده.

الليلة يا بلقيس ، وهذا وعده الذى لم يخلفه منذ البلوغ.

يقول أبو طه، وهو يرص الحشيش فى دقة – كأنه (أجزجى) يحضر (لبخة) :

– مالك يا بو عتمان ، مسهم وشايل (عبكادر) ليه ؟

كان البكرى يسحب الجوزة بكامل عافيته ويطقطق الحجر بجهد مضن وافتعال فاضح كأنه يسجل فيلما وثائقيا عن الحشاشين ، ويضرب مثالاً للأجيال القادمة فى فنون الشد وَالكتم ، ثم نفث سحابة دخان من صدره تسد عين الشمس فى موسم الحصاد وأجاب:

– معلهش يا أبو طه أصل مشاكل الشغل (كدّ إكْدِه) . وآنى المفروض نازل مصر ، وبضاعتى مرمية ف المينا ف لاسكندرية وحاجة (مخربطة) ، طحيت م الشغل والعيال والنجع ، لجيت نفسى مخنوج جلت آجى حدك نشربوا حجرين واتونس بحديتك وبعدين أتوكل.

– تآنس وتشرف وأشيلك على راسى يا بكرى ، أنت عارف كد إيه معزتك عندى من أيام لعراج.

– تعيش يا محمود بس وحياتك تزعق لنا ع الشامى عشان عايزه ف موضوع إمهم.

– يلزمك إيه وآنى أوجدهولك يا واد خالى.

– ووه يا أبو طه ما تسمع الحديت يا خوى.

– حاضر يا صاحبى بس نتغدوا الأول وبعدين أجيبهولك لحديك.

– لا دلوكيت يا أبو طه أنا عاوزه ضرورى.

- جُلت لك حاضر بس أسحب أنت وأنا راح أبعت حد م الوِلْـــد يجيبه.

ظل البكرى يسحب وينفخ ويطقطق ، وعاد أبو طه من الخـــارج ليستأنف عمله فى (التكريز) والتسليك ورص الأحجـــار والشـــد بالمناوبة مع البكرى، حتى جاءهم الغذاء ، فظلا يمضغان ويكرعـــان البيرة مع الطعام ــــ وهى عادة اكتسباها من زملاء مصريين أثنـــاء عملهما فى العراق ــــ وزاد عليهما سيد الشامى فاستمرت معركة النهش والهبر ، ومصمصة العظام وتلك عادة صعيدية قديمة لاختبار الرجولة فى كل شيء حيث البقاء دائماً للأقوى ، واللعنـــة علـــى الرقيع الذى يستسلم أولاً فى أى شيء ، سواءٌ كان أكلا أم كيفا أم تدخينا أم حتى جنسا ، وهذه الأخيرة تكون فى عشش الـــدعارة ، وبيوت المزاج حيث يحسب كل واحد منهم الوقت الـــذى قضـــاه الأخرين مع (المرة) .

وهكذا استمر الحال حتى خلت الصحون من محتواها الذى كـــان يكفى لإطعام عشرة رجال (عتاولة)، فانتفخت البطون ، وتاهـــت العقول ، و ثقلت الأنفاس ، وزادهم الشامى بواجب من الأفيـــون وظل أبو طه يقطع من أوقية الحشيش ويرص، والبكرى يســـتحلب الأفيون تحت لسانه ويسحب أنفاس الجوزة ، ويتبول ست مـــرات ــــ بفعل البيرة ــــ حتى آذان العشاء .. فتذكر أنه طلب الشامى كى يشترى منه كاتم صوت لمسدسه الحلوان 9 مم.

نهض الشامى بعدها فى تباطؤ ، وذهب ساعتين كى يعـــود بكـــاتم الصوت من منزله الذى يبعد عن منزل أبي طه بمسافة مائتى متـــر ، وهكذا أنهى البكرى جلسته معهم ، ونهض ليستكمل طريقـــه إلى القاهرة ــــ كما زعم ــــ وغادر دار أبي طه عند منتصف الليل.

كان البكرى هو فعلاً الابن البكرى للحاج عتمان جيـد .. أكـبر تاجر طماطم فى نجع (على سالم) ، صحيحٌ أن النجع واحد من أفقر نجوع كلاحين القبيلة ، القرية التى لا يعرفها سوى مـأمور مركـز (قفط) ، ومدير الأمن بقنا، ولكن من قال إن الحاج عتمان فقـير، لقد صافح عبد الناصر شخصياً وهو يمنحه خمسة فدادين بعد عودته من اليمن إبان الحرب ، فظل يفلحها هو وشقيقه منصور حتى مـل منصور الفلاحة ، فترك الأرض لعتمان ونزح إلى القاهرة كى يبيـع عافيته لمن يدفع أكثر حتى مجيء سنوات النعيم المسماة بالانفتـاح ، فصار منصور من أكبر مقاولى البناء ، وظل يرسل لأخيه النقود كى يشترى المزيد والمزيد من الأطيان ، بينما هج البكرى مـع هوجـة السفر للخليج ليساهم فى زيادة الرقعة الزراعية المملوكة للعائلة وظل الجيايدة ـــ وهم فرع من أولاد (على سالم) ـــ يكـترون الـذهب ويرتقون السلم الاجتماعى (المعدل) حتى صاروا تجاراً كبـاراً، أو كما يقولون فى الجرائد رجال أعمال الانفتاح ، وبكـوات العهـد الجديد ، وصارت أرض الجيايدة أكبر أرض فى النجع بخلاف مصنع الصلصة فى قفط ، وعمارة بالمسلح فى النجع ، وأخرى بقنا المركز ، خلاف عمارات منصور بالقاهرة ومحالّه ، وعدة سـيارات نقـل ثقيل و(أشياء أخرى).

ولأن البكرى هو الذكر الأكبر لأربع شقيقات ، فكان لزاماً عليـه أن ينضج قبل الآوان ويبقى الذراع اليمنى لأبيه ، ويقضى عمره فى مطاردة الجنيهات حتى سافر العراق فى عزها ـــ بعد الحـرب مـع إيران ـــ ليعود بتجارة جديدة هى تجارة الأدوات الصحية ، ويصير من كبار تجارها ثم مستورديها فيما بعد، وكل هذا وهـو مـا زال مقيماً فى (على سالم) لم ينقل أسرته إلى القاهرة عنـد عمـه أو إلى

الإسكندرية عند أخته خوفاً على ابنتيه من أهل المدينة ، وخوفاً على مصالح العائلة أن تترك بلا مباشرة منه ، وهكذا اكتفى بفايز ــ وكيل النيابة ــ ابن شقيقته فوقية المتزوجة من ابن عمه كى يرعى مصالحه هناك ،وكان يقضى أيامه فى الإسكندرية عند فوقية ،وأيامه فى القاهرة فى شقته الفاخرة فى شارع السودان ومعه عمه منصور، وعادل أصغر أبنائه ، اللذان يقطنان ذات البرج المسجل باسم زوجة عمه (عشان الضرايب) ، ويبقى مقيماً حتى يتأكد من سير نظام العمل كما وضعه ، ويذكّر موظفيه أنهم تحت رقابة جهرية ، ويرضى غروره الفرعونى الأصيل بإصدار الأوامر و(شدّة المحل الميرى) فور سماعهم (كلاكس التمساحة)، ثم يراجع الحسابات وبعدها يعود مكدساً بالأموال ، محملا بالهدايا من أجل عيون بلقيس اللوزيتين.

وربما هذا ما دفعها لخيانته مع صبور شقيقه الأصغر ، الذى كان بالأحرى له أن يكون ابنه.

صبور ..

الذى رباه فى بيته بعد وفاة أبيه وهو لا يزال فى الإعدادية.

صبور ..

الذى أصر البكرى على تعليمه (أحسن علام) حتى ألحقه بكلية التجارة فى القاهرة ، كى يتعلم أساليب الإدارة ، وفنون زيادة الثروة على أصولها.

صبور الذى سيقتله البكرى عارياً غارقاً فى البلل من عرق بلقيس وسوائل مهبلها الناعم الأبيض كبياض (سوهًا) الرجراجة.

كان الفجر يوشك على الانبلاج ، وهو يتسلل عائدا إلى النجع من طريق الجبل بعد قضاء يومه مستتراً فى أبو طشيت عند محمـود أبي طه - صديقه الأثير ، و بعدها ترك سيارته فى مغارة يوصل إليهـا مدق مهجور لا يعلمه كثيرون كان يخفى فيها الحشيش قبل نقلـه لأبي طه الذى يتولى توزيعه.

وراح يمشى حثيثاً فى الطريق إلى منزله ، وهو يستتر بالظلمة حـتى (يكبس) عليهما دون أن يشعر به أحد ، حتى لاح له منزله فى الأفق ، فثبت كاتم الصوت فى مسدسه ، وتسلل إلى المندرة وزحف على الدرج إلى الدور العلوى للدار كاتماً أنفاسه محـاولاً ألا يصـدر أي حركة تشى به ، كان يريد أن يرى الذعر والهلع فى عيونهما قبل أن يتوسلا إليه ، وهو يسحب الأجزاء ويضغط (التتاك) ــ أو ربما كان يريد أن يرى كيف يفعلها صبور ــ ولكنه حتى لو (موّل) علـى الربابة مثل سيد الضوى ما كانا سيشعران به وسط نشوة الجـنس الشبيهة بنشوة المساطيل.

وأمام حجرة نومه ــ حجرة نومه التى ثمنها يفوق ثمن دار فى البندر ــ لم يتمالك نفسه وتأوهات النشوة تمزق طبلتى أذنيـه ، بينمـا بلقيس تطلب المزيد ، وصوت صبور وهو يناديها (يا لبوة) يهلـهل رجولته ، وينثر عليها منيه.

هجم البكرى على حجرة نومه كهجمته على مستودع بيت حانون الإسرائيلى ، أو ربما أشد بطشاً ، شاهراً سلاحه مغيب العقل بفعل الكيف ، والخيانة ، والقهر الذى انتابه وهو يتذكر سخريتها مـن (كرشه) و(غشمه) و(قلة وقته).

" إن أقسى حالات الرعب ..
هى تلك التى تجتاح رجلاً عارياً يمارس الجنس مع امرأة متزوجة ، بينما يفاجئ بزوجها المسعور مقتحماً الغرفة شاهراً سلاحه "

{2}

اندفع البكرى إلي الحجرة محطماً بابها ، نافر العروق ، محتقن الدماء، كأنه غول الجبل وانفرد بأحد الضالين.

البكرى ..

الذى كل صفعة من كفه تعنى كسراً في الفك ، أو على أقل تقدير سناً ناقصة.

البكرى ..

الذى قتل (غريب) بستة طلقات فى جمجمته ، لأنه بصق على عينة الحشيش وهو يتذوقها قبل التسليم فى الجبل.

البكرى ..

الذى يصعد الجبل وحيداً ، فتهابه المخاطر وتهرب منه العفاريت.

البكرى الذى يصوب مسدسه نحو صبور الآن، ولا مجال للاستسلام، أو الاعتذار، أو دفع دية فى (قعدة عرب).

لم يجد البكرى وقتاً كى يفهم بل لم يجد صبور وقتاً ليفهم هو ذاته، لقد التبسه مارد الذعر وغريزة البقاء ، فلم يستوعب شيئاً غير مشهد البكرى ممدداً على السجادة الإيرانية باهظة الثمن والدماء تسيل من شج فى رأسه الأصلع وثقبين فى صدره العريض ، بينما بلقيس تمسك تمثال الآلهة (باستت) الأبنوسى بكلتا يديها وما زالت حلمتاها نافرتين والعرق يغمرها كشلالات الفيوم ، وهو يقف على (السراحة) ـــ ولا يعرف كيف صعد هناك ـــ ويده قابضة على فردة حلوان 9 مم مزودة بكاتم صوت ، يتصاعد من فوهتها دخان خفيف بدأ فى التلاشى.

كان لصبور عادة مقيتة يعلم جيداً أنها ستكون سبباً فى مقتله شـر القتلة ذات يوم، ألا وهى إنه مدلل لا يحتمل الشـقاء ولا التعـب، يعشق النساء ورغد العيش، والحصول على كافة متع الحياة بسهولة دون أى جهد، لذلك لم يفعل فى حياته شيئاً سوى إغواء النسـاء الشهيات الثريات، فهو بالرغم من إرثه الفاحش مـن أبيـه إلا أن البكرى ــ كبير العائلة ــ كان مقتراً عليه، ظناً منه أن كثرة المـال مفسدة، فما كان مصروفه من البكرى يكفيه ثلاثة أيام فى الشـهر، وكان لابد له من إيجاد بدائل سهلة، أحياناً كان يتطفل على إحدى شقيقاته، وأحيانا كان يرافق فتيات الليل مستغلاً وسامته وعذوبـة حديثه، وخبرته فى شئون النساء، فيبقى ملكاً متوجاً وسطهن، يتدلل عليهن حتى يهبنه أجرهن من ليالى العذاب فى أحضـان الرجـال (القذرين) العنينين الآخرين.

ولكن كل هذا كان فتاتاً حتى نضجت الثمرة، وسقطت فى حجره طيبة شهية يسعى لالتهامها، فلم يكذب خبراً.

بلقيس ..

التى جاءت الدنيا كى تعلم الرجال معنى الأنوثة.

بلقيس ..

التى ربته مراهقاً (فأحسنت ربايته)

بلقيس ..

التى كان يشاهدها تستحم من بين خصاص شفاط البخار ــ الذى عطله خصيصاً لهذا الهدف ــ كانت والمياه تترقرق فى دلال علـى بشرتها المائلة للحمرة، وانثناءات جسدها البض رقيق الانحاءات تبدو أجمل من جنيات الحواديت ونجمات هوليود.

كانت وبخار الماء يغلف مفاتنها ــ كأنه يحفظها من الخـــدوش ـــ، تثير فى قلبه الفتىّ ما لم تقدر عليه أى مومس محترفة فى فيلم جنسى.

بلقيس ..

التى كانت فى ليالى سفر زوجها الطويل تستدعيه لحجرتها كى يقرأ لها ترجمة الأفلام الأجنبية.

كان البكرى أول من امتلك فى كلاحين كلها جهاز ڤيديو يابـــانى الصنع، وطبق استقبال (120 متحرك) وارد إيطاليا، كان البكرى أعلم أهل الأرض بفتنة زوجته، ولذلك فقد حبسها فى مترله وأتاح لها كافة وسائل الرفاهية فى سجنها الفاخر هذا.

كان صبور يقعى على الأرض تحت قدميها، بينما هى تستلقى على الأريكة وتتابع أحداث الأفلام الرومانســية فى لوعـــة حقيقيـــة لم يفهمها صبور فى وقتها، بينما تتدلى قدمها بجوار وجهـــه، منمقـــة الأصابع مدهونة الأظفار، آية فى النظافة تستثير ألسنة (أتخن تخـــين) للعقها.

بلقيس ..

التى ما إن التحق بالجامعة فى القاهرة، وانخرط فى عوالمها الســفلية فخبرها، وفك طلاسمها حتى عاد إليها كى يلاعبها بقواعد جديدة؛ كانت بلقيس تنهره كى يغير القناة إذا ما بدت مقـــدمات لمشـــهد جنسى فى الفيلم وكان بسذاجة الطفولة يطيعها ظناً منه فى صـــدق مرادها حتى صار يفعل ذلك تلقائياً حتى فهم معنى النظرة فى عينيها، وفهم رجفة شفتها السفلية الخاطفة التى تحدث فى مشاهد القـــبلات الساخنة.

بلقيس ..

التى تدرب كثيراً فى القاهرة وسافر خصيصاً إلى شرم الشيخ لـــدى ابن عمته ، كى يصقل خبراته جيداً وأتى إليها كى يطبق عليها نتاج (بعثته العلمية).

بلقيس ..

التى لم تحتمل هجماته المتتالية ، بل وكأنها كانت تتمناها ، ولا تجرؤ على الاعتراف لنفسها بذلك.

بلقيس ..

التى أشبعت غريزته بفتنتها لدرجة جعلته يزدرى كل من دونها، فلا تستحق أية واحدة أخرى لقب امرأة سواها.

بلقيس ..

التى لا يملك البكرى أن ينطق أمامها حرف اللام، فضلاً أن يقول لا كاملة.

بلقيس ..

التى أغدقت على صبور بأموالها وجسدها فصار لها عبـــداً مطيعـــاً، ولأول مرة مخلصاً لها وحدها، فلا يرى سواها من بنات حواء.

بلقيس التى تجلس الآن على كرسيها الهزاز، تنظر إليه بنظرات لم ير مثيل قسوتها من قبل، وهى تتأمل جثة البكرى المضرجة فى دمائها، وصبور يبدو أمامها كالطفل الذى بال على نفسه وينتظر انتقام أمه الذى يعقبه دوماً تنظيفها أياه.

(ماما) بلقيس تفكر وستقرر، ولا يسعه سوى انتظار أوامرها.

حينما أشرقت الشمس، كان صبور يجلس فى غرفتـــه مرتجفـــاً، لا ترحمه أفكاره السوداء، كان قد تسلل إلى حظيرة الماشية وأحضـــر

جوالين من الخيش، وحبلا طويلا، وغلف بهم جثة البكرى بالسجادة الفاخرة التى طالما تشدق بثمنها فى كل مجلس، وأخفى الجثة فى سحارة السرير الأميركى الذى مل من سماع قيمته، الحق إن البكرى كان يعانى حالة متقدمة من إحداث النعمة، وكان لابد له من شر القتلة .

ولكن .. ليس بيدى صبور، صبور المدلل مرهف المشاعر الذى تحول فى أقل من اللحظة من حبيب شقى كأبطال أفلام السبعينيات إلى مجرم من العشرات الذين تملأ أخبارهم صفحات الحوادث، ولكن بلقيس تستحق أن تكون ملكاً خالصاً له، لا يتلوث فرجها بمنى رجل غيره.

بلقيس التى جعلت منه (باشا) وسط زملاء الجامعة بسيارته البيجو، التى أجبرت البكرى على شرائها له ، وبملابسه ذات الماركات الأصلية ، وبالنقود الطائلة التى كانت تمنحه إياها من دولاب البكرى.

بلقيس هى التى قررت إخفاء جثة البكرى تحت سريرها حتى يكون صبور قد قام باللازم ، وحينما يجن الليل يخرج الجثة ويتخلص منها كأن شيئاً لم يكن ، خاصة وأن البكرى فى نظر الجميع فى القاهرة فى رحلة عمله التى تتخطى الأسبوع غالباً وبعدها يحلها ألف حلال.

ظل صبور طيلة النهار يتلوى وهو يتخيل نفسه يجر البكرى كى يدفنه، فينهض البكرى فجأة ويمزق الأغلال عن جسده ، ثم ينقض على عنق صبور ينهشه بأسنانه ، ويلقيه بدلا منه فى الحفرة ويهيل عليه التراب ، ظل يتخيل بلقيس وهى تخرج صارخة من دارها

تعدو فى كل أنحاء النجع ، تولول على زوجها القتيل بيد أخيه العاق ، كان يرى المشنقة وقد تدلت من سقف حجرته ، بينما فايز ابن فوقيه يجلس على الكنبة العربى يدق بمطرقته ، ويحكم عليه بالإعدام فيأتى عمه منصور ويضع الغمامة على وجهه ، ثم يسحب الذراع المعدنى فتنفتح الطبلية تحت قدميه ويظل صبور معلقاً فى المشنقة عبرة لكل أهالى النجع.

كل هذا و بلقيس فى الخارج تمارس نشاطها اليومى ، وتتعارك مع نزهة ـ أختها ـ على العجين والغسيل وكأنها لم تشارك فى جريمة قتل ، وكأن تحت سريرها خزين البيت وليس جثة زوجها.

بعد صلاة العصر هدأت الدار ، وعادت نزهة إلى دار زوجها المجاورة لمسجد النجع ، وظلت الفتاتان فى حجرتهما يلعبان (بالآتارى) فجاءت بلقيس إلى صبور ، ورمقته بنظرة جففت الدماء فى عروقه ، ولم تنطق بكلمة ، نهض صبور متثاقلاً كأنه ذاهب إلى المشنقة فعلاً ، وخرج إلى (الأرض) وبقى فيها حتى صلاة العشاء ، وعاد بعدها إلى الدار ، وظل حبيساً فى غرفته يدخن ويجرع الشاى الأسود الثقيل ، ويرتجف انفعالاً ، حتى بات وشيكاً على ذبحة صدرية أو قرحة معدية ـ بالرغم من حداثة سنه ـ حتى انتصف الليل ، فجاءته بلقيس مرتدية جلباباً (رجالى) أثار هلعه خاصة وهى ملثمة بالعمة ، حتى بدت كأحد المطاريد المغير على حظيرة ثرية بالمواشى ، وأمرته بالنهوض ، فصعدا سويا إلى الدور العلوى ، وأخرجا الجثة وتعاونا حتى وضعاها فى صندوق سيارته البيجو ، فانطلق بها حتى وصل إلى أول المدق المؤدى إلى (المغارة) ، حيث

يشوّن البكري بضاعتة قبل نقلـها للقصـير ، وفـوجئ صـبور بالتمساحة السوداء ـ ذات الأرقام الثلاثة ـ على المدق كأنها تعلن الحداد علي القتيل ، كان صبور يرتقي الصخور كـي يصـل إلى الكهف المرتفع نسبياً عن الأرض ، وكان يجر جثة أخيه الثقيلـة ، ويلهث كالكلاب في نهار أغسطس حـتى وصـل إلى (الخزنـة) ، الصخرة المربعة التي تسد فتحة السرداب والتي هي سر أبيه الـذي ورثه البكري ، ومرره بدوره لصبور.

سرداب ضيق شديد القدم يبدو عرضه أقل من المتر ، ويمتد لمسـافة مترين فقط ، ولا يبدو عليه أية لمسات فرعونية ولا يعرف له فائدة غير تخزين الحشيش.

حشر جثة أخيه في ذلك القبر ذي رائحة الحشيش التي (ترد الروح) ، حتى استكثر صبور هذه الفخامة علي البكري ، وبعـدها أهـال عليها التراب ، وردمها بإتقان ـ يساوي ثمنه حياته ـ ، ثم أعـاد الصخرة إلى مكانها وأحضر من سيارته ، (جركن) الماء كي يعجن (المونة) التي أعدها لذلك الغرض ، وهكذا لن يجد أحـد البكـري حتى تقوم القيامة ، أو هذا ما يمني نفسه به كي لا يقضي ذعراً.

وعاد بعدها مرتجفاً إلى داره ، ولم يغفل إخفاء سيارة البكري حـتى يجد لها حلاً نهائياً ، واغتسل جيداً وصر ملابسه في صـرة صـغيرة توطئةً لإحرقها ، وفوجئ ببلقيس التي أزالت كـل آثـار الـدماء والعنف من حجرتها ، وكأنها تتلمذت على يد ريا وسكينة ، فبـدا الحادث كأن لم يكن وتنفس صبور الصعداء أخيراً حينما بدا له أن هذه هي الجريمة الكاملة ، وبات يحلم بغدٍ أكثر إشـراقاً ، وعـالم جديد رائع كله بلقيس ، ولا وجود للبكري فيه.

" إن الرجل لا يشعر بمرارة اليتم إلا حينما يطرح فى فراشه محموماً .. لا يجد من يناوله جرعةِ ماء"

{3}

ينهض أحمد بصعوبة بالغة ويتكئ على طرف فراشه ، وهو يجاهـــد للوصول إلى الثلاجة ـــ فهو يملك ثلاجة قديمة 8 قدم كانـــت فى شوار أمه ، وسقطت من نظر زوجة أخيه فتركتها له ـــ ينهض كى يشرب وربما استطاع أن يصنع لنفسه كمادات مثلجة قهـــبّط مـــن شدة الحمى التى تنتابه.

يجرع جرعة كبيرة تموج لها معدته فيفرغها كلها على أرضية الغرفة ، فما كان يقدر على الإسراع إلى الحمام.

يترنح بائساً فى حالة مرضية شديدة السوء ، لابد من أن يعنى بـــه أحد ، أى أحد ولكن رفاهية التمريض لا تتأتى لفقـــير وحيـــد فى الثالثة بعد منتصف الليل.

الحل الأمثل هو "أوزو" رفيق ليالى الإحباط والجـــوع والمـــرض ؛ يضغط زر الدكتافون وهو يشعر بامتنـــان بـــالغ لصـــاحب هـــذا الاختراع ولأوزو الذى أصر على تثبيته بينهما بعدما مـــل مناداتـــه الدائمة بعد منتصف الليل ، وبعد كثرة الشكاوى مـــن جيرانهمـــا سكان البيت.

صوت أوزو يأتى نعسانا متململاً ، ولكن ما أن يسمع بحة المرض فى صوت صديقه حتى يهرع إليه ، وما أن يراه حتى تنتابه لوثة الهياج ، ويهرع لجلال كى يوقظه ، ويأمره (بتسخين) ســـيارته الأجـــرة وينطلقا به (للميرى) أقرب مستشفى لهم وأكـــبر نمـــوذج لمعانـــاة المصريين، وعذابهم الدائم على يد وزارة الصحة.

أشعل أوزو سيجارة لنفسه وأخرى لجلال فى قاعة الاستقبال ، بينما الممرضة مفرطة البدانة تثبت (الكانيولا) فى عروق أحمد الشبيه بالحرملة الممزقة من فرط الإعياء توطئة لحقن بعض المحاليل فى وريده ، طبعاً بعد العثور على الطبيب النوبتجى — الموجود فى مكان سرى كأنه مطار الطاسة الحربى — كى يقرر استئناف العلاج بالمستشفى ، أو تحويل المريض (للحميات) وهى الأخرى نموذج لظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

كان أوزو قد تخطى الأربعين بسنوات قليلة لم ترحم شعره من الصلع ، بينما حافظت على تكوينه العضلى الممشوق كأنه مازال فى (الفورمة) ، و لم يقلع عن الملاكمة منذ ما يقرب من العشرين عاماً ، وربما ساهم عمله (مكنجى) نجارة فى الحفاظ على متانة بنيانه.

كان أوزو يملك دوماً حكمة جاهزة استخلصها من كافة تجارب حياته ، وهى أن الناس كلها ولاد كلب ، ولا ينفع معهم الطيب أبداً.

يقولها لأحمد منذ سنين عدة ، ومع ذلك لم تحمه من الخداع ، وضياع حقه ، وخراب بيته على يد مطلقته.

بمعجزة ما بعد مرور ساعة وربع فقط ، كان أحمد يستند على كتف أوزو ، ويدلف إلى غرفته ، ويستلقى على فراشه ، و لم يشعر برحيل أوزو إلا حينما استيقظ عند الظهيرة وهو فى حال أفضل.

كان أوزو منهمكاً فى عمله على (الرابون) فى ورشته المجاورة لباب البيت ، والتى هى فى الواقع أقرب لأحمد ـــ باعتباره يقطن الـــدور الأرضى ـــ منها لأوزو ساكن السطح ، فحياه أحمد بتلويحة من يده ، وسارع الخطى للخروج من المنطقة.

ما كان يريد الخروج ، ولا يملك الذهاب إلى عمله وقد انتصـــف النهار ، وصار غيابه بدون إذن أمراً واقعاً وما كان لديـــه مكـــان يذهب إليه ، ولكنه مل شقته الضيقة ـــ غرفة وصالة ـــ وجلســـته فيها وحيدا أمام القناة الأولى ساعة الظهيرة ـــ فترة مـــا لا يطيقـــه المشاهدون ـــ فجنح فى سيره ناحية البحر، واستقل مشـــروعاً ـــ ميكروباصاً ـــ حتى جليم واتجه إلى المرآب.

(جراج عابدين) ، الواقع بشارع محمود الديب أمام فيلا العمروسى ، بالطبع ماعادت الآن ملكاً لأحمد فهمى العمروسى بـــك وزيـــر المعارف فى حكومة صدقى باشا ، ولكنها احتفظت بالاسم مثلمـــا احتفظت العمارة الواقع تحتها المرآب باسم عمارة العبد بالرغم من هدمها واستبدالها ببرج سكنى مرتفع الأدوار.

المرآب ، وذكريات الطفولة ، وعاطف عابدين قريـــب والدتـــه ، والذى اتخذ من أحمد صديقاً برغم صغر ســـنه، وصـــفقات بيـــع السيارات المستعملة التى أشركه فيها ، ومحاولاته الدائمة فى مساعدة أحمد فى إيجاد عمل مناسب ، وأول نقود حقيقية تعـــرف طريقهـــا لجيبه.

جليم ، حيث نجلاء ابنة عبد الدايم البواب الريفى العجوز ، حب المراهقة وأحلام المترل الواسع متعدد الغرف ، حلم السفر للخليج ، والعودة بسيارة محترمة مثل سيارات المرآب الفاخرة التى تمنى أن يقتنى إحداها كى يقودها إلى المعمورة و(يركن) أمام (ويمبى) ويطلب وجبة الكومبو (أم 8 جنيه).

جليم ، حيث عاطف بمشكلات زوجتيه الاثنتين ، والمرآب الذى ورثه عن أبيه ، وسخريته الدائمة من كل شيء حتى من نفسه.

عاطف ..

بشهامته المفرطة ، وكرمه البالغ وحنكته فى التجارة.

عاطف ..

الذى جعل من أحمد أخاً أصغرَ، وفعل معه ما لم يفعله أخوه الحقيقي.

عاطف ..

الجالس مع أحمد أمام المرآب فى شمس الخريف الحنون، يتبادل معه الأخبار ويمازحه ، ويستمتعان معاً بمشاهدة النسوة العابرات فى كامل زينتهن كأنهن فى الحفل السنوى لنادى الروتارى ، ويستعرض معه إمكانية بيع السيارة الـ 131 الخاصة بالمهندس ناجى — الدور السادس — ، يفعلان ذلك وهما يحتسيان القهوة المحوجة ، ويدخنان (السوبر) التى لا يدخن عاطف غيرها منذ أيام التجنيد ، بينما يقاطعه أحياناً بالنهوض لمساعدة عماله فى تحرير سيارة أو (تحضينها) بجوار الرصيف ، وهو يسبهم ويدعو عليهم جميعاً بالخراب.

حين أقبل الليل ، نهض أحمد عازماً العودة لداره واقترض من عاطف عشرين جنيهاً حتى أول الشهر ، فعرج بها على حمدى البقال كـى يشترى القليل من الجبن واللانشون والزيتـون وعلبـة سـجائر ، ويستميت على الخمسة عشر جنيها الباقية ، ثم يعود إلى منزله قرب منتصف الليل ، ليستبدل ملابس الخروج بملابسه المنزلية المريحـة ، ويصعد لأوزو على السطح.

يقول أوزو وهو يعد الشاى بعد هذا العشاء (الدسم) :
- النهاردة جه مقاول عشان يشوف البيت.
- تانى يا عم الحاج ، من يوم الزلزال وده تالت مقاول ييجى ونقعد ونتكلم وبعدها يروح ويقول عدوا لى.
كان البيت قديماً .. يكاد يكون أثريـاً كأغلـب بيـوت منطقـة العطارين، وحينما ضرب الزلزال مصرَ منذ عامين مضـيا ، كـان رحيماً بالإسكندرية ، بينما كان كاسحاً فى القاهرة الكبرى كأنـه غضبة الرب.
لم ينهرْ أى عقار فى المنطقة كلها ، برغم سوء حالة البيوت بها ، ولم يترك الزلزال أثراً على بيت الشيخ رفعت ـــ جد أحمـد لأمـه ـــ سوى تصدع فى الجدار الداخلى للدرج بطول الدور الأول كلـه ، وقرار من المحافظة بالتنكيس وإزالة الدور الثانى ، وهو قرار حكومى ـــ (كده وكده يعنى) ـــ ومن يومها بعـدما فشـل السـكان فى الاتفاق على تكاليف التنكيس ، وهم يحاولون العثور على حل أيسر بأن يجدوا مقاولا يهدم البيت ويبنى واحداً جديداً مكانه ، ويمنحهم شققاً جديدة فيه وهو أمر يشبه أحلام المصريين الدائمـة بـالثراء السريع عن طريق مسابقة (لبان) ، أو العثور على حقيبـة جلديـة

(سامسونايت) متخمة بالدولارات ولا يملون الحـــديث فيـــه ، ولا يبحثون عن حلول بديلة أكثر منطقية.

كان أحمد يهوى جلسة السطح فى الصيف ، حيث الهواء الرطـــب ولألآت النجوم وزوم الحمام فى (غية) أوزو ، بينما الشتاء يكـــون عذاباً مقيماً على السطح ، ولكن أوزو كان قليلاً ما يـــترل لغرفـــة أحمد ، فقد كان يفضل العزلة عن صخب الشارع ولقاء سكانه بعد انتهاء عمله فى ورشته وهو يقضى نهاره قابعاً فيها يشاكس النـــاس ويشاكسونه ، لهذا كان أحمد يحتار دائماً فى الاختيار بين مجالســـة صديقه فى الزمهرير، أو التقوقع وحيداً فى غرفته.

يقول أوزو فى سخط وهو ينفث دخان آخر سيجارة فى علبته :

– ما كله م الولية (السوْ) بسبوسة مش عاجبها الاتفاق.

– وهى مالها يا عم هى دافعة حاجة من جيب أبوها ما الراجل كان موافق يدى لكل واحد فينا شقة صغيرة ويدى أم ســـعيد وفاطمـــة وعباس والزفتة بسبوسة دى كل واحد شقة كبيرة وأهو كل واحد على قد مساحة شقته.

– ماهى مش عاجبها أنه يدينى محل أعمله ورشة ، بتقولى الحُق بتاع أبوك ده مش ورشة دى أوضة مسروقة ف بير السلم ومفتوح لهـــا باب ع الشارع.

– وهى مالها هى فلوس أبوها ما الراجل ها يديك حقك ، وبعدين دى ورشة غصبن عن عين أهلها أبوك الله يرحمه كان عامـــل لهـــا ترخيص وبطاقة ضريبية وسجل تجارى ولا إيه.

– نسوان عايزة الحرق والله ، عمرهم ما يحبوا الخير لراجل أبداً.

وتلك قناعة ثابتة عند أوزو ، كراهية الحريم التي لا يستطيع أحمد أن يلومه فيها أبداً ، ولكنه كان كأي رجل طبيعي يحب النساء ويشتهي الزواج ، ولكن أوزو رأى من النساء ما لم يره في المسيري خلال سنوات التجنيد.

أوزو ــ واسمه عبد الحفيظ ــ كان الابن الثاني بعد أخيه يونس ، وله ثلاث شقيقات أصغر منه ، ماتت أمهم وهم بعد صغار ، لم يكن يونس أنهى الدبلوم وقتها ، وبعد أن توظف يونس في الحكومة ، وتزوج واستقل بحياته بعيداً ، وجد أوزو نفسه مجبراً على القيام بمهام الأخ الأكبر ، خاصة بعد فشله في التعليم مما جعله مساعداً لأبيه النجار رغماً عنه ، ومن بعدها ورثه في المهنة ، ووجد أخواته في رقبته ، فعاش من أجل (شوارهن) وزواجهن ، وأهمل نفسه حتى شارف الأربعين من عمره فحاول أن يلحق قطار الزواج، و لم يجد أمامه سوى نورا ابنة نصار الكهربائي ساكن السطح المقابل ، والتي ظلت لسنوات تشاغله من السطح وتشاغل كل أعزب في المنطقة ، حتى تورط وتزوجها ستة أشهر فقط.
طبعاً ما كان يملك شيئاً سوى ورشته الأصيلة ، ذات الماكينات الروسية الثلاث اللواتي يضاهين عمره ، وغرفته بالسطح بحمامها الخارجي ، التي لا يعلم كيف كان يعيش فيها أبوه وأمه والخمسة أشقاء معاً.

لم تمانع نورا من زواجها في نفس الغرفة، طبعاً بعد بعض التحديدات و(التوضيبات) ، واستغلال باقي مساحة السطح بصنع

(كارافان) خشب على يد أوزو ، واستخدامه كمطبخ ، و لم تكـد نورا تستقر فى عش الزوجية السعيد حتى بدأت فى إحصاء دخلـه ، ومراقبة زبائنه ، وعد أنفاسه ، والاستيلاء على كل ملـيم يملكـه لتنفقه على أدوات التزيين والملابس الفاخرة ، وادعاء الرقى والثراء نكاية فى كل امرأة عادتها فى المنطقة وكل رجل (مشت معاه كـام شهر وسابها بسبب الجشع) ، حتى ضاق الحال بأوزو و لم يحتمـل ، وزاد الطين بلة عراكها الدائم مع أخواته اللواتى يطـالبن بحقهـن الشرعى فى الورشة الموروثة ، و لم يكتفين بشـباب أوزو الضـائع عليهن ، ولأول مرة منذ وفاة أبيه يسب ويلعن وينهال بالصـفعات على النساء الأربع ـــ شقيقاته وزوجته ـــ ، ويطردهن من البيـت جميعاً شر طردة ، و لم تكذب كبراهن خبراً ولجأت هى وزوجهـا للقضاء مطالبة بحقها فى إرث أبيها ، وتبعها شقيقتاها الأخريـان ، أما نورا فقد حزمت حقائبها المكدسة بالملابس الفاخرة ، والذهب الذى اشترته من أموال أوزو التى استولت عليها منه جبراً أو الـتى ادخرتها من مصروف البيت دون علمه ، وعادت لبيت أبيها كـى تطلب الطلاق ، وتكبده مؤخر الصداق و(القايمة)، وكـل قـرش كتبه على نفسه بحسن نية قبل الدخول بها ، ومن يومها لا يطيق من الإناث سوى (لاسى) كلبته الوولف الألمانيـة نقيـة السـلالة ، والممثلات الأجانب اللائي يمتعن نظره على الشاشة ، ولا يطلـبن المقابل.

لذلك كان أوزو يمتلك جهاز تليفزيون 25 بوصة وهوائيًا حـديثًا مزوداً بجهاز البوستر الذى يقوى الإرسال (حرامى الدش) ، الـذى يستقبل بعض القنوات الأوروبية ، ولو كان ثرياً لامتلك الدش ذلك الاختراع الساحر.

لهذا كان يصعد أحمد ، ليستمتع بالصحبة البشرية ومشاهدة التليفزيون ، بدلاً من القنوات المحلية التى تنام مبكراً ، ولكون أحمد وأوزو هما العازبان الوحيدان فى البيت ، فدائماً ما تجد أحدهما عند الآخر ، إذا ضاق الرزق بأحدهما ولم يجد عشاءً أو شاياً أو سيجارةً يحل ضيفاً جبرياً على الآخر ، وكثيراً ما يجدان نفسيهما مفلسين معاً فيكتفيان بمشاهدة التلفزيون ، أو الاستمتاع بالدفء فى شقة أحمد القبلية على أنغام وابور الجاز الذى يستعمله أحمد كمدفأة — وهى حيلة ورثها عن أمه — والاستماع إلى شرائط الكاسيت — الطبعة الشعبية — التى يجمعها أحمد بحرص شبه مرضى.

وهكذا ظلت بسبوسة تمان وتغتاب طيلة ثلاث ساعات كاملة ، ولم ينج سيرتها منهما سوى الشيخ جابر حينما رفع أذان الفجر ، فقاما للاستعداد للصلاة ... وعودة كل منهما لوحدته.

" إن القــوة الأســطورية للمــرأة لا تتجلــى أبــداً ، إلا فــى اقتناصـها الرجل الذى تبغيه "

{4}

كان أحمد يبدو معلماً أكثر من المعلمين أنفسهم ، بل ربما كان يبدو أستاذاً جامعياً ، وهو ما أثار فضول بسمة الأخصائية الاجتماعية ، كان أحمد السيد يعمل سائقاً لحافلة المدرسة ، أى أنه غالباً لم يستكمل دراسته ، ولا يكفى راتبه البسيط تكاليف الحياة الباهظة ، إن مظهره يوحى بالاستقرار المادى ـــ ابن ناس ـــ بالمفهوم الشائع للكلمة ، وكان دوماً صامتاً ، لا يتبادل معها إلا عبارات مقتضبة .. كان يجلس مع عم فكرى عامل الكانتين .. يدخنان سراً تحت الشجرة الوحيدة بالمدرسة أمام الكانتين ، حيث جلسة أحمد المفضلة والتى لا يتركها حتى يتم استدعاؤه من قبل المدير كى يلومه على التدخين ويهدده بالرفت.

وهكذا ينتاب بسمة صداع مزمن لا يريحها منه سوى شرب القهوة من الكانتين لأنهم فى غرفة الأخصائيين يملكون براداً وأكواباً وسبرتاية صغيرة يصنعون الشاى عليها ، هذا فى الصباح أما بعد (الفسحة) فكثيراً ما تصاب بالإسهال ، فتضطر للذهاب إلى حمام السيدات الموجود فى مبنى الإدارة ، وحيث الطريق المؤدى إليه يمر ـــ بالصدفة ـــ بالكانتين جيئة وذهاباً ، ولم تره ينظر إليها ولا إلى غيرها من زميلات المدرسة نظرة اشتهاء ـــ مما كان يهين كبرياءها الأنثوى ـــ .

ولأن المرأة حينما ترغب فى رجل لا ينجيه منها سوى ملك الموت ، وكان أحمد المرشح الوحيد لنيل دور البطولة فى فيلم حياتها العصيبة،

ولأن بسمة تستحق الزواج ، ولا تستحق العنوسة كحال أغلب صديقاتها وقريباتها ، لكونها الكائن الوحيد فى عائلتها الحاصل على شهادة جامعية ، والتى قاتلت قتال الأبرار كى تلتحق بوظيفة بمدرسة خاصة للبنات بعقد مجحف (ولكنه مستديم ذو طابع حكومى) ، كانت محظوظة فى الظفر به.

و لم تعرف فى بيت أبيها العامل بشركة الملح سوى الزحام والجوع ومخططات الهرب ، لذلك فقد آن أوانها كى تجد أى مغفل يتزوجها، وينجيها من بيت أبيها ، خاصة ولو كان هذا المغفل وسيماً أنيقاً، لا ينقصه سوى (القليل) من الثراء كى يصبح فارس أحلام أسطورى.

هكذا لم يكد العام الدراسى ينصرم ، حتى كانت بسمة تزين بنصرها بخاتم ذهبى محفور على إطاره الداخلى اسم أحمد ، وتاريخ الخطبة ، ورسم ساذج لقلب ينبض بالحب.

وصارت أمراً واقعاً فى حياته رغماً عن أنف كل المعترضين وعلى رأسهم أحمد شخصياً.

أحمد السيد ربيب (عاطف جراج) ، الذى كان سائقاً فى الجيش ، وبعد انتهاء مدة خدمته ، واستخراج رخصته المهنية استأجره عاطف كى يعمل على (التاكسى الشيْرك) الخاص به فترة طويلة ، وظل يتوسط له عند سكان العمارة كى يجد له وظيفه ثابتة ، حتى جعله القبطان حمدى ــ الدور الثامن ــ السائق الخاص بزوجته ، وبعدها بعام واحد أو يزيد ساعده اللواء البهنسارى ــ الدور الأول

ـــ على العمل فى تلك المدرسة إعمالاً بمبدأ (إن فاتك الميرى) ، لأن المستقبل يلزمه تأمينات اجتماعية ، ومعاش نقابى إلى آخره.
كان أحمد شاباً واسع الاطلاع ، غزير الثقافة بالرغم من كونــه لم ينل تعليماً جامعياً ، فقط (دبلوم) بالكاد ، وهو ما كان يبهر بسمة بادئ الأمر ، ثم صار يضايقها ويولد الكثير من المشكلات بينهما ، فقد كانت ترى أنها (مربية أجيال) متعلمة شديدة الذكاء ، بــرغم أن تعليمها (أميرى) ، وبالقطع ما كانت تقرأ سوى (برجك اليوم) و(أحدث خطوط الموضة) و(فقه المرأة المسلمة) الذى قرأته مــرة واحدة و لم تفقه منه شيئاً.

وهكذا كان الصدام الدائم بين عقلية نشأت فى ظــلال العقــاد ، وزكى نجيب محمود ، وعقلية ترعرعت فى أحضان نادية الجنــدى وهى تقهر إسرائيل بجسدها (المثير) ذي الخمسين خريفاً ، وعفاف شعيب وهى تتناول (الشهد) وتذرف (الدموع) فى تمــام الســابعة والربع من مساء كل يوم.

يجرع أحمد القهوة ـــ مشروبه الوطنى ـــ ، ورائحة دخان سيجارته تثير غيظها ، وهما يجلسان فى (قهوة السلام) أو كافيــة دى لابيــه بالفرنسية المطل على البحر لأنهما فى أول الشهر ـــ والراتب لا يزال (بخيره) فى جيبه ـــ فيتنهد ويقول :
- أكثر حاجة بتعجبنى فيكى يا بسمة هــى براءتــك ، أو يمكــن سذاجتك وثقتك العامية فى الناس، الناس اللى ربونا خــلاص يــا حبيبتى خلصوا من زمان ، الناس دلوقتى بقت غــيلان مســعورة ، عبيد لشهواتهم أكثر من كفار الجاهلية ، لو كان بإيــديهم كــنتى

تلاقى كل واحد ماشى ف الشارع من غير لباس وشـايل سـيف أطول منه وبيدور على ضحية جديدة يسرقها أو يغتصبها أو يقتلها لو مالقاش عندها حاجة تنفعه.

" أكتر حاجة بتعجبنى" هل يظنها بلهاء ، أكيد يقصد أكثـر مـا يغيظنى ، أو ربما يكون صادقا فهو بالتأكيد يرى فيها ألف شـيء يكرهه أكثر ، بدءاً بقبحها الذى تنكره أمام الجميع وتعتـرف بـه لذاتها فقط ، وانتهاءً بآرائها السطحية التى لو سمعها طفل فى العاشرة لاتهمها بالضحالة.

كانت تحكى له عن الفجيعة التى اقترفتها عزيزة فهمى مـدرس أول الرياضيات ، والتى لم تسمع عن مثلـها سـوى فى مسلسـلات التليفزيون التى تتهم كتابها بالشطط.
وهالها بشاعة ما عرفته ، وكادت تجن لو لم تشى به لشخص آخر، فقد كانت عزيزة هذه أرملة مات عنها زوجها ، وهى ما زالـت شابة فى أواخر الثلاثينيات بعدما أورثها ثروة طائلة ، ومن يومهـا وهى تبحث عن متعتها الجنسية فى أحضان رجال فى عمر ابنتـها ، حتى صارت فضيحتها (بجلاجل) مما جعل ابنتها نزيلـة دائمـة فى مصحة نفسية ، ولكن ما أثار قشعريرة الرعب فى جسد بسـمة ــ غير متسق القوام ــ هو هدوء أحمد فى تلقيه للخبر ، وكأنه يتوقـع ذلك بل الأكثر هولاً أن يكون على علم به ، وربما طرفاً فيه بطريقة ما.

تمتعض شفتيها فى ضيق حقيقى وهى تطرد الدخان بكفها بشكل استعراضى مفتعل ، لأنها فى الواقع تهوى رائحة التبغ المحترق بل وتدخن سراً أيضاً ، ولكنها ككل امرأة .. تدعى النفور من الزوج المدخن ، وتحرم التدخين على خطيبها بدعوى الحفاظ على صحته ، بينما ما يثير جنونها فى الواقع هو إهداره للمال على متعته الشخصية التى لا تعود عليها بشيء ، بالرغم من شكواه المستمرة من قلة ذات اليد عندما تسأله عن (الموسم) أو تجهيزات الزواج ، وتجرعت جرعة شديدة الرقة ـــ لكى تحافظ عليه ـــ من كوب البرتقال و سألته فى استرابة :

- أنت كنت عارف ولا كنت بتخمن ؟

- ما كنتش عارف بس كنت متوقع لأنها فى اختبار حقيقى ، لأنها لسه شابة وجميلة وغنية وعايزة تلحق تعيش حياتها قبل ما تنتهى. وللأسف فهى زى أغلب الناس فشلت فى اختبارها ، بدل ما تقاوم شهوتها جرت وراها ، عشان كده الجنة غالية قوى وعشان كده اللى هيروحوها قليلين ، هتلاقى كل واحد عمال يتفشخر بنفسه ويقولك أنا مقبلش الحرام وعلى جثتى ، وأول ما يتزنق أو تجيله الفرصة ف الدرا ويعرف أن جريمته محدش هيحس بيها تلاقيه اتقلب شيطان ، عشان كده الاختبار صعب وربنا يكفينا شره أنا نفسى ما أضمنش نفسى ساعة الإغراء ما هيكون كبير هاعمل إيه، ربنا يحفظنا ، لأن الاختبار فتنة تميز المؤمن من الكافر أو زى ما القرآن بيقول :

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؛ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ.} [1]

وحتى فى الكتاب المقدس هتلاقى :

{وَالَّذِينَ عَلَى الصَّخْرِ هُمُ الَّذِينَ مَتَى سَمِعُوا يَقْبَلُون الْكَلِمَةَ بِفَرَحٍ ؛ وَهؤُلاَءِ لَيْسَ لَهُمْ أَصْلٌ ، فَيُؤْمِنُونَ إِلَى حِينٍ ؛ وَفِي وَقْتِ التَّجْرِبَةِ يَرْتَدُّونَ.} [2]

كانت تلك إحدى مميزات أحمد التى تبهرها وتثير حسدها فى الوقت ذاته ، كونه متدينا حقا ، ويحفظ كثيراً من القرآن و(يفهمه) ، ولكن معجزته الحقيقية هى معرفته بالإنجيل ، وبالكثير من تعاليم المسيحية.

وهو ما يبدو خيالا علميا ، حيث المصريون جميعاً متدينون بالمظاهر، فهم فقط يؤدون الفرائض دون أى تطبيق لأخلاق الدين فى تعاملاتهم اليومية ، وقليلاً ما تجد مسلماً يحفظ شيئاً من القرآن ، أو مسيحياً يحفظ شيئاً من إنجيله ، وإذا وجدته فنادراً ما تجده يفقه ما يحفظه ، اللهم إلا إذا كان من علماء الدين.

ولذلك فإن أحمد بعد كافة المصائب والمسرات التى صادفتهما معاً ، لاتزال تستنكره فى كثير ، وتنبهر به فى كثير ، ويثير جنونها فى الأكثر ، حتى إنها كانت تظنه ممسوساً أو على أقل تقدير (جاسوسا فى مهمة وطنية) ـــ دماغ أفلام ـــ كما يقول عنها دوماً ، ولكن ما

---

1 سورة العنكبوت الآيتين (2 ، 3)

2 الكتاب المقدس ، لـ قا 8: 13

كان يؤكد لها دوماً بشريته ، هي فقره الشديد ، وضيق رزقه الدائم ، بالرغم من امتلاكه حسابًا بنكيًا ، وبطاقة ائتمان ، وهو حدث لم تصادفه إلا على شاشة التليفزيون ، حتى ولو كان رصيده صفراً وحسابه الائتماني مديوناً.

حتى ذلك كان يثير شكوكها أحياناً ، حينما تجده في منتصف الشهر ــ وهو يقبض لا شيء تقريباً ــ ، وقد بدت عليه مخايل الثراء ، وامتلك نقوداً لا تعرف مصدرها ينفقها عليها بلا حساب ، وهو أمر يحسب له فهو شديد الكرم معها فعندما يملك مالاً لا يمنع عنها شيئاً اشتهته ، حتى ولو نسيت هي ذلك ، وهو أمر مقلق جداً أن تسأله يوماً شراء بضع الحلوى أو لوح شيكولاتة كورونا ذات الغلاف الأخضر ــ مما يشعره ببلاهتها وطفولتها البائسة المليئة بالحرمان ــ ، فيعتذر لخواء جيبه تماماً ، وفي اليوم التالي تجده يهديها حذاءً جديداً يبدو باهظ الثمن بدلاً من حذائها المهترئ ، وهو ما يجعلها تطير فرحاً بكل هداياه التي تبهرها في مواقيتها وأذواقها وملاءمتها لها، ثم حينما تنفرد بنفسها ليلاً تنهشها وحوش القلق ، فإذا وجد المال وهو ما كان يبدو مستحيلاً بالأمس فمتى يجد الوقت للشراء ؟ ، وإذا امتلك المال والوقت ، فكيف يعرف القياس والذوق اللذين يناسبانها ؟ ، وإن وجد هذا كله فمتى يغلفها بذلك الأسلوب الأنيق الدقيق لحد الغيظ ، لذلك فهي تستبعد فكرة المس الجني فلا يوجد جان بهذه (العفرته) ، إذن فلا بد أنه في اجتماع الأمس (مصر) أعطته هذه العبوة المغلفة مكافأة له على براعته في العملية ، مثلما يعطي يوسف شعبان المظروف المنتفخ لرأفت الهجان ، بينما موسيقى الشريعي تدوي في الخلفية ، وهكذا

تنام منهكة من كثرة التفكير ، ولا تنسى أن تحتضن الحذاء وهـــى نائمة مثلما كانت تفعل بملابس العيد الجديدة ليلة الوقفة.

" إن الرجل لا يحتمل الشقاء وسغب العيش وانقطاع أسباب النجاة .. إلا حينما يجد واحداً آخر يشاركه هذا الجحيم "

{5}

يعد أوزو طعامه بكف فقدت عقلتين من أصابعها بترهما المنشار الميكانيكى الروسى فى زمن قديم ، المنشار الوحيد الباقى بعدما باع كثيراً من ممتلكات الورشة ، كى يستخلصها لنفسه ، ويلقى المال فى وجوه شقيقاته ، وتصير بينهم القطيعة للأبد.

الورشة ..

التى ذاق أشهى الأطعمة من إيرادها ، التى جعلته رجلاً ، وجعلت شقيقاته الجاحدات أمهات لهن بيوت وأطفال.

الورشة التى جعلته مطمعاً لنورا ، وأفسدت عليه حياة الأزواج المستقرة.

كان يصنع الموسكا ، وهى أكلة خضروات باللحم المفرى اكتسبها من سنوات عمره التى قضاها فى اليونان بجرع الأوزو — وهو سبب اسم التدليل الخاص به — ، ويأكل الأسماك البحرية الشهية كل يوم، ويصادق من الفتيات من هن أجمل من أثينا ، وأكثر بهاءً من أرتميس ، ويملك من المال ما يشترى به مصنع أخشاب.

كان ذلك النعيم فى سنوات شبابه المبكر الذى ظنه سيدوم أبد الدهر حتى بلغه نبأ وفاة أبيه ، كى يترك كل شئ ويصل للإسكندرية فى اليوم التالى حتى يحضر الدفن بنفسه ويتلقى العزاء ، ومن يومها وهو يحيا فى استقامة النساك ويتنفس فى كل شهقة حلم العودة لأوروبا أو حتى أفريقيا . المهم أن يبتعد عن الفقر والجشع والتكاسل المتوطنين فى مصر كأنهم البلهارسيا والأمية والوساطة.

أوزو ..
الوحيد الذى لا يؤنسه سوى (لاسى) الأنثى الوحيدة التى لا تزيف مشاعرها ولا تدعى عكس ما تشعر به وتحبه دون شروط ، وأحمد السيد ..
البائس الآخر الذى يذكره بآلام حياته ويشعره بالألفة فى هذا العالم الموحش.
أحمد السيد ..
حفيد الشيخ رفعت الذى توفى جده الذى استأثر بتربيته باعتباره أصغر أحفاده والذى ذاق اليتم مبكراً ، وبعد وفاة الشيخ رفعت أصر أحمد على البقاء فى مسكنه ، يتخذه مقراً له أيام دراسته و نادياً لأصدقائه أوقات الإجازات حتى ماتت أمه زينب واستولى شقيقه محمد على شقتها الواسعة وتزوج فيها وجاء يتقاسم مع أخيه ممتلكات أمه وجده ، فيستأثر لنفسه بما يروق لزوجته ويترك الفتات لأحمد المسكين الذى يشاطره جحود الأشقاء ، ونكران الأهل واليتم المبكر ، و الوحدة.
أحمد ..
الذى ورث عن جده شيخ الأزهر مكتبة عامرة هضم كل حرف خط على صفحاتها ، ونماها بجهود حثيثة وصارت عشقه ومبلغه وكانت الشيء الوحيد الذى زهدت عنه امراة أخيه كل الزهد فلم تنازعه عليها.

أحمد ..
أحد السائقين الخبراء فى مهنتهم ، والذى كان يعمل لدى قبطان بحرى وينال منه أجراً جعله يعرف الطريق للمصرف لأول مرة فى

حياته بخلاف الهدايا والملابس الأجنبية المبهرة ، والتي كانت تجعله كأحد ممثلي السينما بقوامه الممشوق ، ووسامته المفرطة وأناقة إيماءاته العفوية كأنه سليل عائلة ملكية.

كان أحمد بعقليته التجارية الفذة وبراعته في عقد الصفقات مؤهلاً لمستقبل مبهر مليء بالرفاهية ، ورغد الحياة حتى ترك عمله دون مقدمات ليعمل سائقاً لحافلة مدرسة بما يقل عن ربع الراتب الذي اعتاد عليه . وإن كان أوزو يشك أن الموضوع يحمل بصمات امرأة، فالمرأة هي المخلوق الوحيد القادر على إفساد أية حياة منتظمة وهي المخلوق الوحيد القادر على تدمير أعتى الرجال ، وإفساد أقدس النفوس .. المرأة التي خلقها الله ابتلاءً لبني آدم في الدنيا كي يجازيهم بجنة الخلد التي لابد ستكون (للرجال فقط) ، المرأة التي تحل بلعناتها وتأتي دوماً بالفقر في أعقابها ، وخصوصاً تلك الفتاة أم (قدم شمال).

لايعرف أوزو كيف يراها أحمد ويتقبلها ، فهي قبيحة الملامح لا يكاد يرى لها أي مظهر أنثوي ، وهذا كله شئ و(مفعولها) شئ آخر تماماً.

فبمجرد خطبة أحمد لها بدأ في حياته فاصل جديد يملؤه الاقتراض والسجائر (الفرط) ، وأيام كاملة خالية من الزاد ، إهمال تام في ذاته حتى كثرت حالات مرضه المفاجئة و اختفت عيناه وسط هالتين سوداوين قبيحتين ، و قل وزنه أكثر من عشرة كيلوجرامات.

وبعد عامين بدأ أحمد فى التدنى لأسفل الدرك حــتى لاحــظ أوزو نقصاً مستمراً فى مقتنياته ــ وخاصة المكتبة التى يكاد يقدسها ــ ، وبدأ يعانى مشكلات قانونية مع دائنيه ، وصار زبوناً مستديماً لدى زكى عوض المحامى القاطن أعلى عرفة العطار ــ ومكتبه صالة مترله ــ وهو محام (على ما تفرج) ، ويعمل شكك فما كان أحمد يقدر على أتعاب أى محام مخضرم حتى ولو كان (وارد الأرياف).

أحمد السيد الذى يدوى صوته فى مكبر الديكتافون ليتاكــد مــن وجود أوزو متيقظاً بغرفته ، ويبلغه بقدومه إليه بــ (كــيس) بــن محوج يستحق سهرة من أجله.

" إن الجريمة التى تسترت عليها كارثة قدرية ، يلزم لهتك سترها كارثة أشد هولاً "

{6}

يهب صبور من نومه مذعوراً على صراخ بلقيس وهى تهرول بحثاً عن الروب الحريرى كي تستر جسدها الزاعق بالنضج الأنثوى وتهرع لغرفة ابنتيها وهى تولول ، بينما تتجمع صرخات أهل النجع جميعاً فى صرخة واحدة مرعوبة ترج الكون كله وتبعث الذعر فى أرجاء الأرض الأربعة كأنها صرخة المذنبين يوم الحشر.
فيقفز قفزاً من على سريره (بالوراثة) ، وينطلق (كالطلق الحى) للخارج كي يرى السماء وهى تطبق على الأرض ، و(تفعص) سكانها بقسوة الطبيعة الكاسحة التى لا تعرف التعقل ولا تبقى وراءها كائناً حياً.

(قنا) عذاب الماء ، كان يقولها أبوه ساخراً ، بينما هو ما زال طفلاً، لا يعرف عن النيل سوى وداعة غبية طينية اللون يبارى فيها أقرانه فى السباحة ، ويتلصص على شاطئها كى يختلس النظرات لسيقان نسوة النجع المكشوفة وهن يغسلن فيها أوانيهن النحاسية أو ملابس أسرهن.

كان أهل النجع أحياناً يلقمون نيلهم جثث البهائم النافقة ، فيتقبلها بترحاب دائم ، وأبداً لم يغضب.
لم يكن صبور يعرف ضراوة نيل مصر إبان الفيضان والمياه الفائرة حمراء اللون وكأنها دم الغرقى المسفوك تقتلع أشجاراً باسقة من جذورها وتكسح بيوت السكان اللبنة بما فيها ومن فيها فى طرفة عين.

إنه لم يعرف سوى النيل العجوز المروض بفعل السد العالى ، الأليف المطيع كأنه أجير فى خدمتهم.
ولكنه اليوم فهم عبارة والده التى بدت فى غاية الحكمة وتمنى لو كان أبوه موجوداً ليعرف كيف سيتصرف فى مثل هذا الموقف ؟.

لقد كانت المياه الهادرة تهاجم القرية من الست جهات دون مبالغة ، السماء تميل الأمطار على الرؤوس فى مشهد كان يصف الشيخ حجازى مثيله فى أهوال يوم الدينونة ، بينما كل جهة من الجهات الأربع (تطرش) فى الوجوه طوفاناً من الماء الأسود المختلط بالتراب الذى يلتهم كل ما يقابله من بيوت وأثاث وزروع وبشر ، بينما الأرض تميد بالجميع من تحتهم ، وتتفجر فيها المزيد من عيون الماء ولا يعرف كيف ، وكأن كل هذه المياه لا تكفى لشطب (على سالم) من خريطة قنا المعلقة بمديرية الأمن ، وكأن مياه النيل اختزنت كل أعوام الفيضان المقيدة بفعل السد العالى فى حقد مكتوم ، ثم جاءت تطلقها على الجميع فى يوم واحد.

كان صبور يصرخ فيمتزج صراخه بالنشيد الكابوسى لأهالى النجع، ويجاهد الطوفان لكى يعتصم منه بالجبل (الجبل الذى وارى فيه جثة أخيه القتيل) ، ويبدو أن هذه الفكرة سيطرت على عقول الكثير ، فصار التزاحم والاقتتال بين أهالى البلدة كأنه الفرار من .... من ماذا ؟ .. إنه فرار من الطوفان الذى أهلك من قبلهم أمماً سادت الأرض لأزمان عدة ، الطوفان الذى لا يذر أحياء ولا يجعل فى الأرض موطناً جافاً لقدم هريرة.

كان الناس يدهسون بعضهم بعضا تحت أقدام الذعر الغليظة دون أى تعقل أو محاولات فهم ، وكأن كل هذا الهول لا يكفى لفناء جنسهم ، فراحوا يساهمون فى عملية استئصال شأفة البشر من الأرض ليتركوها لسيادة الطوفان ، الطوفان الذى عبده الفراعينُ اتقاءً لغضبة مثل تلك تذهب العقول وتهدى الزنديق وتلحد (صاحب الطريقة).

ماء على ماء ، من أعلى ، من أسفل ، على ذِات السيمين وذات الشمال ، ماء غادر يزأر فتدوس النسوة على أطفالهن بحثاً عن منجى ، ماء ينقض على فرائس بشرية معدومة الحيلة فيموت أشد الرجال بالصدمة العصبية قبل أن يبلغ منسوب المياه عنقه.

قد أهلك الطوفان قوم نوحٍ من قبلهم وصاروا عبرة للاحقين ، فهل سيبقى من الكلاحين ، بل وقنا بأجمعها ، وربما مصر كاملة ... هل سيبقى منها ما يصير عبرة لبشر آخرين ؟ أم تراه يوم القيامة وكل خلق الله يلتهمهم الطوفان كما يفعل الآن فى كلاحين القبلية ؟.

كان يعدو بسرواله (أبو دكة) ، وهو يرفرف بذراعيه كالمجاذيب ؛ وصور الغرقى وشلالات المياه السوداء تزاحم فى عقله صوراً مشابهة من عامين مضيا ، وكأن الطبيعة مصرة على إفناء القطر المصرى .

كان يرى الأرض تموج بالمياه الخانقة ، ويرتفع مستواها ليخسف بكل البشر وآثارهم ، ذات الأرض التى انشقت من قبل لتبتلع العمارات والأبراج شاهقة الارتفاع فى غمضة عين ، وتبتلع فى جوفها نصف مصر ... ومقتل البكرى.

لم يجد أحد الوقت كى يلاحظ اختفاء البكرى ، ففى ذات الأسبوع تصدرت أخبار الزلزال كل وسائل الإعلام وباتت حديثاً طويلاً متصلاً فى كل جلسات أهل النجع ، النجع الذى نجا من الزلزال كأغلب صعيد مصر، وكان فقط يبيت لياليه مؤرقاً فى متابعة أخبار أبنائه فى القاهرة الكبرى موطن الكارثة.
وصار الراديو الترانزستور ضيفاً حاضراً على كل شخص فى كل أوقات يومه ، فى حين يتولى التلفزيون نوبته بعد انتهاء الأعمال وانقضاء المصالح فى عجالة ، وكثرة القراءة الجماعية للصحف الثلاث بحثاً عن كل خبر جديد ، وكل جثة يتم انتشالها.
وفى اليوم الرابع من أيام الكارثة تساءل أحد العباقرة فى وجاهة شديدة عن أخبار البكرى فى مصر، وحال عمه منصور.
كان منصور قد نجا هو وأولاده جميعاً من الهول بعدما خسر عمارتين و(زلموكة جديدة) انهارت عليها ثلاثة طوابق بسكانها، ولكن البكرى لم يعرف أحد عنه أى شيء ، خاصة أن العم منصور لم يبلغه قط وصول البكرى للقاهرة وهو عمدة الكلاحين فى العاصمة.

بدا صبور متفائلاً وهو يضع احتمالية وجود البكرى مستتراً فى الإسكندرية أو عند أبي طه ، ولكن بلقيس ظلت تنعق كغراب البين، وتولول على رجلها الذى حتما ذهب إلى القاهرة لأنه على موعد مع (فرج بيه) نائب مجلس الشعب ، مما دعا لتشكيل لجنة بحث قوامها صبور وحامد زوج نزهة وعبد المغنى زوج أماثل وهو من كلاحين أبنود وحضر بزوجته لمؤازرة العائلة فى فجيعة فقدها للبكرى و بلقيس التى أصرت على الذهاب معهم فى تشنج هستيرى

تستحق عليه الأوسكار ، وهكذا قابل فريق (الشجعان) عادلا وعليا ابنى منصور فى القاهرة ، ولحق بهم من الإسكندرية فايز ابن فوقية ، ومن البحر الأحمر دياب ابن نعمة ، كى تبدأ رحلة البحث عن البكرى — أو جثته — فى شوارع القاهرة المنكوبة وكأنها السويس فى زمن الحرب.

قال شاهد — ابن حلال — إنه شاهد البكرى قبل الزلزال فى الحسين يزور أهل البيت ، بينما صرح — ابن حلال آخر — بأنه سهر مع البكرى فى الأريزونا ذات الليلة ، واستمرت هم الحال هكذا مع (أولاد الحلال) حتى مضى أكثر من شهرين لعقت فيهما المدينة البائسة جراحها ، وبدأ الناس فى استيعاب وضعهم الجديد بضم مصر لحزام الزلازل ، وعادت المدارس لتفتح أبوابها أمام الطلبة من جديد بعدما صارت حصة (كيفية اتقاء خطر الزلازل) مقرراً إجبارياً جديداً ، وهكذا حتى صرح لهم (الشيخ) جميل الحاوى — مدير معرض مكرم عبيد — بما كان يخفيه بين جنباته حتى أثقله السر وأضناه الكتمان.

أخبرهم الشيخ جميل وهو يغالب دمعه فى وقار يحسد عليه بأنه ترك (الحاج) البكرى ليلة وقوع الزلزال — وهذه أول صدمة — فى مخزن العباسية — وتلك الثانية — أما ثالثة الأثافى فهى انهيار العقار القاطن به المخزن ومعه أربعة عقارات مجاورة وهلك تحت أنقاضها جميع سكانها، إضافة إلى عابرى السبيل تعيسى الحظ الذين تواجدوا فى ذلك الشارع تلك الساعة النحس.

كان ودمعه ينهال على لحيته الكثة فيبللها فى منظـر يمـزق نيـاط القلوب .. يبدو تمثالاً ناطقاً للصدق ، مما جعله يتفوق على بلقيس ويتفرد وحده بالأوسكار ، بينما صبور يغلى ويتقد حتى كاد يلطم الخدين من هذا الإفك ، فهو و بلقـيس الوحيـدان علـى الأرض الواثقان من مكان البكرى الآن ، وهما وجميع أهلهما لا يعرفـون شيئاً عن مخزن بالعباسية مملوك لأخيه رجل العائلة الـذى يطلعهـم على كل كبيرة وصغيرة.

أخوه مريض التفاخر الذى لو اشترى علبة ثقاب مستوردة لقضى لياليه فى المقاهى يجالس كافة خلق الله كى يحكى لهم وهو مطـرق الرأس فى تواضع مصطنع ، كيف أن الله أكرمه بشراء تلك النعمـة بكذا وكذا ، وإن كله من مال الله (إحنا لينا فيها إيه) ، ثم يستأنف فى ورع (أصيل) : "وأما بنعمة ربك فحدث".

أخوه هذا ما كان يخفى ملكيته لمخزن بهذه المسـاحة ، وفى هـذا المكان ، وهو ما أثار ريبة الجمع ، حتى أتى (الحاوى) بعقد شـراء صحيح مثبت التاريخ موقع عليه البكرى.

وهكذا عادوا جميعا ــ بما فيهم هشام وعادل وعلى وحتى دياب ــ إلى النجع لاستكمال مؤتمرات المشورة ، والخروج بنتيجـة تـريح أذهانهم .

و لم يكد عامٌ ينقضى على الحادث ، حتى وجد صبور فى يده شهادة وفاة لأخيه (شهيد الزلزال) ، ساعده فى استخراجها المستشار فـايز ونائب مجلس الشعب (فرج بيه) ، واستدعاه عمه منصور كى يأمره بالزواج من بلقيس.

الأرملة المنكسرة على بنتين من لحم أخيه الكبير ، والوصـية علـى إرث أبيهما ، وحيث لا يوجد عند الصعايدة أعز من شيئين لابـد من الحفاظ عليهما فى قبضة العائلة بأى ثمن ... الأرض والنسـاء ، وعندما اعترض صبور بحجة فارق السن بينهما ، نهره عمه وأمـره بإقامة حفل زفافه عليها بصورة تليق بالجيايدة ، وتنسـيهم مـرارة الحزن، و لم يترك لصبور سوى الخضوع على مضض ـــ حقـه فى الأوسكار هو الآخر ـــ وتم الأمر كما أراد العم منصور جيد.

كان صبور يرفل فى رغد جنته بالمعنى الحرفى للكلمة ، فقد أوكـل إليه عمه شئون العائلة ، وهكذا عاد إليه إرث أبيه كاملاً ، والـذى ظل البكرى يقتّر منه عليه حتى أذله ، بالإضافة إلى مـال البكـرى الذى هبط عليه من (طاقة القدر) فجعله إمبراطوراً ، بينما جعلتـه بلقيس بجمالها (هارون الرشيد فى حكاوى ألف ليلة وليلة) .
بلقيس التى بلغت ذروة رونقها الأنثوى وهـى علـى مشـارف الأربعين، والتى جعلته أميراً من الحواديت ، بلقيس التى كانت تتمنى زوجاً يفيض عليها حنانا وفحولة مرة واحدة يومياً فتنال بدلاً مـن ذلك زوجاً (أكل ومرعة وقلة صنعة) ، لا ينفك يعاشرها آناء الليل وأطراف النهار ويطاردها بتدليله إياها فى كافة أركان المترل كأنـه مازال عشيقها الذى يترصد كل فرصة متاحة كى ينالهـا ، حـتى ذابت فى كل خلاياه عشقاً كانت تترجمه دوماً إلى أموال سائلة تزيد من تعلقه بها ، وهكذا تستمر دائرة العطاء الطردى المتبادل بينهما ، ولا يكاد يكدر صفو حياتهما سوى الملعون الحاوى، الذى بـاعهم موت أخيه بالزلزال حتى يستأثر لنفسه بمحتويات ذلـك المخـزن

السرى التى لا يعلمها إلا الله ، والذى صار الآن هــو (الكــل فى الكل) بعد وفاة البكرى وجهل صبور بأعماله.

ولكن بلقيس ـــ الحلم المجسد فى ثوب امرأة ـــ أمرته بأن يتناســى الأمر ، بل وأمرته بترك المعرض للحاوى يفعل به ما يشاء ، فهــو صاحب الفضل فيما هما فيه الآن ، وكأنه تستر على جريمتهما ونال أجره ولينعما ببعضهما بعضاً ، ويعوضان مــا فاتهمــا فى وجــود البكرى حتى ظن نفسه فى جنة الخلد.

" حينما يأتى طوفان الموت الجماعى ليجرف معه أغلب النفوس ويذر خراباً منتشراً وقلة تجاهد للبقاء.
قد يكون الموتى وقتئذ أوفق حظاً من الباقين أحياء "

{7}

يجلس صبور منهكاً على بروز صخرى ـــ كان يقع منذ يومين فقط فى (حضن الجبل) ـــ .
يتطلع فى وجوه أهلكها الإعياء والذهول ، وما زالت تعـــانى فقـــد النطق ، ووجوم الصدمة ، بينما النسوة لم تنفك (تعدد) على زينـــة شباب النجع ورجاله بصورة غيبية ، فهن ما زِلن لم يتيقن بعد مـــن مات ومن نجا فى هذا اليوم الأسود.

يجلس صبور ، ويجول فى الوجوه حوله محاولا حصـــر الضـــحايا ، بينما لا يزال الصيب يهطل كأنه غضب المولى المسلط على تلـــك القرية البائسة.
لربما كان هو سبب ابتلاء النجع والقرية والمركز أيضـــاً بطوفـــان السخط الإلهى كي ينتقم الله منه جزاء فعلته على عيون الأشهاد من الباقين فى النجع ، ربما جاء الطوفان خصيصاً كى يجرف قبر البكرى ويظهر جثته المستترة فيه منذ عامين ، ربما جاءت نقمة السماء كى يعرف أهل النجع بفعلته فيرجمونه حياً هو و بلقيس.
بلقيس ..؟
تنبه الآن فقط لغياب بلقيس ، بل لقد تنبه لوجودها أصلاً فى الحياة، بلقيس والبنتان يا (خبر أسود) ترى أين هن ؟ ، وماذا حدث لنزهة وزوجها ؟ ، ترى ماذا حدث لأماثل ؟ بل المهم ماذا حدث للكهف المدفون فيه البكرى والذى غمرته المياه والطين وفتت اندفاع الميـــاه جزءاً من صخور مدخله ؟ ، ترى هل آن وقت سداد الدين ، أم لا

يزال البكرى راقداً فى قبره الصخرى بسلام ؟ وكفاه تنغيصاً عليه فى حياته ، فليفعل (حسنة) واحدة بعد مماته ويبقى مختفياً عن الأنظار.

ظل صبور هائماً فى فكره ، واعتصامه بكهوف الجبل التى لم تغرقها المياه هو وأهل قريته القبلية كلها حتى أشرق الصباح التالى وهو يبشر بقرب نهاية الكارثة ، فقد هدأ طوفان المياه واقتصدت السماء فى مائها ، فصارت مجرد (أمطار غزيرة) ، وليست سيولا كاسحة ، وبدأ أهل القرية فى البحث عن المفقودين ومحاولات انتشال بضع من أغراضهم ومتاعهم الطافي أو الغارق فى متناول اليد ، وبدأوا بالفعل فى تأسيس حدود جديدة للنجع ، بل لقرية كلاحين القبلية التى صارت تقع بأكملها فى (حضن الجبل) حرفياً وصار سكانها (ينحتون فى الجبال بيوتا) بينما فوجئ المطاريدُ (الفارّون من أحكام، أو من التجنيد الإجبارى) بأنهم صاروا أهل الدار ثانية بعدما صارت القرية بأكملها (مطرودة) بفعل السيول.

السيول كما أسمتها الحكومة ، والطوفان كما خبره أهل البلدة المنكوبة.

كان الشيخ حجازى قد وجد راديو ترانزستور مغلفاً بالمشمع داخل أحد الصناديق (يبدو أنه كان جزءاً من شوار أحدهم) ، وظل يبحث عن حجارة جافة طيلة يومين صار يجول فيهما باقى نجوع القرية بلا هدى حتى عاد بأنباء رهيبة بالفعل تواسى أهل القرية وتهنئهم على سلامة أبدانهم.

ينوح الشيخ حجازى وهو يتمتم بما لا يتنبه له أحد ، ولا يميز منه صبور سوى حمد الله على النجاة من أهوال يوم القيامة (والتى صار واثقاً من وقوعها كحد أقصى بعد يومين) ، ثم يقول فى ذعر جنونى:

- إن السيول اجتاحت الصعيد بكامله ، ولا يوجد شبر من أرض مصر يابساً حتى معابد الفراعين العملاقة أغرقتها السيول وهدمت فيها ، ولكن هذا فى حد ذاته رحمة مقارنة بالجحيم الذى فتح أبوابه على مصراعيها فى وجه قرية النصارى.

كان صبور يعرف أن قرية درنكة بأسيوط ، هى أبعد مكان بلغته العائلة المقدسة فى مصر ، وصار بها دير كبير (للعدرا) ، وقد اصطلحوا فيما بينهم على تسميتها قرية النصارى ، حيث كونها المكان الوحيد فى مصر الذى يتألف جميع سكانه من المسيحيين فقط.

كان لصبور أصدقاء فى درنكة (لا يقلون عنه شهامة) ، زملاء الجامعة فى القاهرة ، وبعض تجار خير الجبل ، الذى يسمونه بالباطل (آثار) ، ولذلك فقد استرعى كلام الشيخ حجازى مسمعه ، حيث الشيخ حجازى كان لا يصف حادث الطوفان فى درنكة ، ولا كان يصف أهوال يوم القيامة (كعادته فى كل كارثة قدرية) ، بل كا يصف كابوساً واقعياً ، لم يستطيع معه أشد الرجال أن يكتم دمعه ، واتهم بعضهم الشيخ حجازى بالتهويل وبعضهم بالجنون ، وساد الخرس العظيم حينما سمع الجميع نشرة أخبار صوت العرب.

كانت كارثة قنا الحالية ـــ ومصـــر بأكملـــها ـــ هـــى الســـيول وجبروت الماء المسيطر عليها ، فيما كانت درنكة على موعد مـــع الجحيم الحق الذى يشوى الجلود ويفحم الجثث بينما سخط السماء يهدر الطوفان مدراراً ، فمن لا يغرق يحترق بعدما اختلطت ميـــاه السيول التى اجتاحت القرية بالمواد البترولية الـــتى تســـربت مـــن الخزانات التى أقامتها الجمعية التعاونية للبترول فى مخر السيل علـــى سفح جبل أسيوط الغربى.

محرقة جماعية أقيمت على عجالة لأطفال ونساء وشباب وشـــيوخ غفلوا فى بيوقم ، ولم ينج أحد من مئات المنازل المنكوبة الواقعة فى المنطقة المنخفضة على أطراف القرية سوى من شاءت لهم الأقـــدار البيات خارج بلدقم تلك الليلة المشؤومة.

كانت شدة الحريق كفيلة بتفحم كثير من الجثث ، بينما شـــاركت السيول بدورها فطمرت الرمال التى حملتها السيول ما تبقـــى مـــن أطلال البيوت المحترقة بمن فيها تحت طبقة سميكة قـــد تزيـــد عـــن المترين.

كانت الأمطار قد تواصلت طوال الليل فى سباق محموم ، وجهـــد كأنه متعمد لإغراق القرية قبل شروق شمس اليوم التالى ، وتمكنت المياه من نخر القاعدة الخرسانية الهشة (جديدة الصنع طبعاً) لأحـــد مستودعات الجمعية فانكسر جداره ، وتسرب منه الوقود أطنانـــاً مختلطاً بالمياه المتدفقة ، وواصل الخليط الجهنمى زحفه الغادر بسرعة وهدوء إلى البيوت الفقيرة المنسية التى لا تحظى بزيارة المحافظ إلا مرة واحدة (عند بدء توليه مهام المنصب) ، وبدأ الحصار ثم الاقتحـــام والتسلل البطيء حتى غمرت المياه المحملة بالوقود ـــ كأها أنابيـــب النابالم التى ظن اليهود أها ستؤمّن لهم قناة السـويس ـــ مســـاحة

القرية بأكملها ، وعند الصباح كأنها ساعة الصفر حين قابلت المياه مصدر إشعال ، تحولت المنطقة فجأة إلى كتلة واحدة من اللـــهب المستعر بتوافق زمنى شديد الدقة لا يتأتى إلا بتصريف إلهى.

فى اليوم التالى حضر إلى درنكة الدكتور عاطف صدقى ـــ رئـــيس الوزراء ـــ وسار عشرة أمتار أمام كاميرا التليفزيون متحاملاً على نفسه بسبب المرض وظروف السن ، ثم توقف لتســـجيل حـــديث تليفزيونى أدلى فيه بتصريح للتعبير عن الاهتمام الرسمى والتضامن مع الضحايا ، ويقولون إن الرئيس مبارك فاجأ الجميع بجولة بالطـــائرة فوق قرية درنكة صباح اليوم ـــ الجمعة ـــ ولكن الطائرة لم تستطع الهبوط (نظراً لظروف فنية ، طبقا لتصريحات جريـــدة الجمهوريـــة الصادرة فى الصباح التالى) وأمر ببناء بيوت جديدة وتوزيعها مجاناً فى منطقة قريبة أمر ببنائها وأطلق عليها " درنكة الجديدة ".

كان نهار الجمعة قد انتصف فوجد صبور نفســـه ـــ دون إرادة ـــ يهتف فى أهل القرية الباقين كى يقوموا لصلاة الجمعة ، بينما كان الشيخ حجازى يحاول السيطرة على ارتجافة شفته السفلية ، ويصدر لهم تعليماته بإشارات من يديه يحدد بها اتجاه القبلة ، ويأمر النســـوة بالتراجع .

وكأنها الفسطاط إبان الفتح الإسلامى تراص جميع أهل القرية الذين وصلوا إلى الجبل خلف الشيخ حجازى فى صلاة شديدة الخشـــوع طويلة التضرع ، بعد خطبة قصيرة غير مفهومة منه ، وتبعتها صلاة الغائب على أهليهم المفقودين تحت جحافل المياه واستمرت دعواتهم حتى صلاة العصر وعصر كل الأيام التالية فى أيام التشريد.

" إن لعنة الحب الأبدية تكمن فى إتيانه دوما فى غير أوانه.
لذا فإنه حين يرحل لا يترك للمرء فرصةً مصادفةِ حب آخر قد يأتى فى أوان أكثر ملاءمة "

{8}

يتأمل أحمد جسد بسمة العارى ــ متناقض التكوين ــ وهى تهرع إلى الحمام لتسارع بالاستحمام بينما هو ما زال راقداً فى الفراش عارياً .. لم يفكر حتى فى التدثر بغطائه.
كانت لبسمة عادة ذكورية مقيتة تشتكى منها النساء دائماً ، فهى بمجرد الانتهاء من ممارسة الجنس تهرع إلى الحمام كى تغتسل من عرق الخطيئة ــ ربما لأن هذا ما يسيطر على عقلها الباطن ــ وتأتى دوماً بعدها فى كامل ملابسها لتنظر له نظرات اللوم.

أغلب النساء يشكين من إهمال الرجال لهن بعد انقضاء شهوتهم بالجنس ، ولكن بسمة تعد الحالة الأولى من نوعها ، ربما لاقتناعها الدائم بإثم فعلتهما لا يعرف ، ولكن مادام بينهما خطيئة ما فهو إذن يريد أن يتمتع بخطيئته كاملة ما دام قد اقترفها (واللى حصل حصل) ، كان أحمد يحلم مع بسمة بالوصول إلى نشوة الجماع (الأورجازم) بل كان يحلم بما بعد الأورجازم.
يحلم بحضن دافئ طويل يجمعهما ، قبلة امتنان حنون يتبادلانها فى شقاوة ما بعد الجنس ، ولكن بسمة كانت دوماً مصدراً للسعادة الناقصة ، للمتع غير المكتملة ، كانت إذا تكبدت عناء طبخ وجبة له تنسيه عناء حياة العزاب أفسدت صنعها ، إذا منت عليه بجسدها ليناله أشبعته لوماً وتانيباً.
بسمة..

التى ضيقت عليه الخناق حتى استسلم لشباكها ، التى أغوته بمباهج الزواج ونعيمه بدلاً من عذابات (العزوبية) والوحدة التى يعيش كافة تفاصيلها.

بسمة ..

التى أعطته كثيراً ، وتنازلت عن الأكثر كى تظفر به.

بسمة ..

التى تبدأ بالعطاء وتنتهى بالمن والأذى والتقريع.

بسمة التى عادت بكامل ملابسها تستند على إطار الباب وتنظر إليه رافعة حاجبها الأيسر ممتعضة الشفتين فى لوحة فنية دلالتها (قوم يا موكوس).

لم يتبادل معها أحمد ثلاث كلمات وهو يرتدى ثيابه ويتسلل معها للشارع ويتخذان طريقهما لمترلها.

كان أحمد ينظر إلى ساعته فى انتظار بدء وصلة (العكننة) الخاصة ببسمة بعد كل لقاء جنسى.

كانت أنثى شديدة الغباء تفتقر دوماً لاختيار مواقيت طلباتها، بل كانت تفتقر اختيار ألفاظها ، كانت تلقى فى وجهه (دانات مدفع م / ط) وتتوقع منه أن يتقبلها بمنتهى الهدوء ويرد عليها بمنتهى المنطقية!

ولم تكذب بسمة خبراً فبمجرد وصولهما إلى (محطة مصر) حتى انفجرت فيه:

- ها وبعدين هنتنيل كده لحد إمتى ؟

وتستمر ..

- بقالنا سنة ع الحال ده وانت مش فالح غير إنسك تتسهبب

معايا وتنبسط وخلاص، ولا عمرك فكرت تخلص جوازتنا النحس دى ولا هتفكر.

وتستطرد ..

- وتتعب نفسك ليه؟ ما أنتا مبسوط كده بتاكل وتشرب وتنام معايا ، علي إيه بقى نتجوز ونبقى زى بقيت الخلق المحترمين؟

يتنهد أحمد ويشعل سيجارة أمام نظراتها النارية ولا يعلق ، تلك البائسة لا تعرف كم يعانى بسببها ومن أجلها.

كان أحمد هائماً فى حب مستحيل لا فكاك منه حتى ظهور بسمة و(تنطيطها زى فرقع لوز) حتى أقنعته بالزواج منها.

كانت أشد منه فقراً ، شديدة القبح لن تجد كلباً أجربَ يتشممها ، ظن أحمد أنها ستستميت فى الحفاظ عليه وتضعه فى عينيها ، كان يملك شقته الضيقة التى تقبلت السكن فيها بعد جهد بسيط ــ فقد كانت تريد الخلاص من جحيم أبيها ــ ، كان أحمد يملك من المال ما يكفى لخطبتها وأيضاً كان يملك من الفرص ما يزوجه منها خلال عامين على الأكثر.

فقط اشترطت عليه تجديد شقته بالكامل بكافة أجهزتها الكهربية ، وإقامة حفل زفاف كبيراً فى مسرح وليس فى الشارع ــ كالعادة ــ مادامت قبلت وتواضعت ووافقت على السكنى فى هذا (الحُق) الضيق.

بسمة تستمر فى الصراخ والنواح والتقريع والسباب أحياناً ، وهو لايعيرها أذناً لكونه هائماً فى وديان أخرى لم يخبرها بشر سواه.

كان أحمد السيد يحيا فى زمان ما حياة أخرى بروح أخرى ورفقة أشخاص آخرين ، إنه يشعر أحياناً بأنه فى كابوس طويل لغيبوبة عميقة يتمنى الإفاقة منها.
كان فى السابق يعمل سائقاً خاصاً لمدام فاتن مديرة واحدة من أكبر شركات الملاحة المملوكة لزوجها ، كان يكسب من ورائها كثيراً وكثيراً جدا ، كان يأكل طعاماً يسمن ويغنى من جوع ، يرتدى ثيابَ زينة فى ذاتها، يرتاد أماكن تثير الحقد فى نفوس أقرانه ، ويقابل يومياً أروع مخلوقات الله على هذه الأرض البائسة ...
ليلى .

ليلى إبراهيم سكرتيرة الشركة ..
كتلة من النشاط والحيوية والكفاءة ، كائن يقدس العمل والنجاح ، ليست كباقى المصريين فى الطبع وإن كانت من أجملهم فى الملامح.
ليلى ..
الصارمة مع زملاء العمل كأنها أكثرهم ذكورة ، شديدة التعاون كأنها أم الجميع برغم حداثة سنها نوعاً ، أنيقة الملبس مبهرة الألوان كأنها (كلوديا شيفر).
ليلى ..
شديدة الرقة والعذوبة ، التى تجلس ثمانى ساعات على كرسيها الجلدى فلا ينخفض مليمتراً واحداً.
التى إذا سقط عنها هذا القناع سهواً أشرقت منها شمس الأنوثة فى سطوع يعمى نظر الحالمين.
ليلى ..

ذات أجمل عينين ينبضان بالحياة فى العالم ، حمرية اللون طويلة العنق مرفوعة الأنف الدقيق فى شمم كأنها نفرتيتى شخصيًا فى ملابس (مودرن).

كانت مخلوقًا أصليًا ليست (تايوانى) كأغلب النساء من حوله ، كانت صادقة المشاعر لا تعرف الزيف ، لا تدعى بل تحيا ذاتها وليس ذات أخرى.

كانت ليلى زميلته فى العمل التى يراها مرتين أو ثلاث خلال اليوم ولا يتبادل معها سوى كلمات الترحاب ساعة الصباح ، كان هذا المخلوق رائع التكوين ملكًا لرجل آخر.

كانت تجهز لحفل زفافها بعد شهور قلائل وكان كل زملاء العمل يتعهدون لها بفعل الأفاعيل فى (ليلتها) ، فهى محبوبة بالفعل لديهم جميعا ، كلهم يتمنى أن يرد إليها ولو القليل من خدماتها الكثيرة المستعصية على الحصر.

أحمد وحده كان يمارس دور غراب البين وحيدًا ، يتسلل إلى الحمام كى يدخن سيجارة يفنث مع دخانها سموم حقده على هذا الوغد الذى هو حتمًا لا يستحقها ، لن تجد ليلى رجلاً على هذا الكوكب يحبها ويسعدها غيره ، كان يهيم بها كأنه مسحور من شطار الحواديت ، كأنه (مسبى) ولا يملك له أحد (الفاكك والفاكوك).

كان لا ينظر إليها تقريبًا خشية أن تفضحه نظراته ، ولكن ليلى .. الذكاء الأنثوى فى هيئة امرأة كانت تنظر إليه نظرات تشجيع ، وأحيانًا شفقة ، وما أثار جنونه نظرة الحسرة التى رمقته بها ذات يوم وكأنها تواسيه ونفسها على لقاء فات أوانه منذ دهور.

لم يحتمل أحمد هذا الصراع الداخلي الذى يمزقه وهى تشرق أمامه كل صباح وتغيب مع ظهور المساء لتنير ليل شخص آخر.
شمس مبهرة الحسن تتألق فى ثوب بديع الألوان شديد الأناقة والجاذبية.
أربعة أشهر عاشها فى هذا العذاب ، ضاحكاً فى وجه كل من يلقاه، ناكراً سره عن الجمع بما فيهم أوزو كاتم أسراره ، وكأنه نموذج واقعى لـ (العذاب فوق شفاه تبتسم) حتى اقترب موعد زفافها وزاد الطينة بلة (حادثة الأتيليه).
فى ذلك اليوم الغريب استدعته مدام فاتن قبل انتهاء فترة العمل وطلبت منه الذهاب لبيت أزياء شهير كى يتسلم فستان الزفاف الذى تم تفصيله خصيصاً لعروس الشركة ، والتى قامت المدام بتحمل نفقاته باعتباره (النقوط) ، وهكذا ذهب فى رحلته يسب ويلعن الجمع بما فيهم هو نفسه حتى عاد بالفستان المغلف ـــ لحسن حظه حتى لا تنفجر شرايينه ـــ وذهب لمكتب السكرتارية كى يسلمها الفستان .

لا يعرف أحمد هل يحزن أم يفرح لما حدث ؟ مشاعر غزيرة شديدة التناقض انتابت قلبه الملتاع وليلى تصافحه وتضغط على يده ضغطة مشجعة وتقول له بصوتها ملائكى النبرات :

- ربنا يسعدك ببنت الحلال اللى تستاهلك.

كانت لمسة يدها تلك آخر ذكرى لها فى قلبه ، فقد ترك عمله من يومها حتى إنه استقال واستلم أوراق تعيينه من القبطان فى جليم ، لم يقو على الذهاب إلى مقر الشركة معللاً ذلك بخلافه مع (شريف فوزى) المحاسب الذى رفض اعتماد فاتورة (الجنوط) لأنها ليست

من التوكيل.

وهكذا وجد نفسه يتسول عملا حكوميا ما ــ لادعائــه أن هــذا سبب تركه عمله ــ حتى صار سائقاً فى تلك المدرسة الإعدادية التى اقتنصته منها بسمة.

بسمة التى لا يدرى كيف وُجدت فى حياته ؟ ولا يــدرى كيــف ستبقى فيها بل لا يدرى حتى كيف يتخلص منها إذا أراد ذلك ؟.

كانت الأفكار تتصارع فى ذهنه ، تلهيه عن حديث بسمة (الممتع) حتى وجد نفسه فجأة أمام منزلها ، فوعدها بفعل كل المستحيلات المطلوبة غداً بعد انتهائه من عمله ، وودعها وهو يعود أدراجه لمنزله بينما لا يزال يتذكر ليلى ويتحسر على فقدانها.

" إن المرأة التى تُفسخ خِطبتها قبل زفافها بأسبوع على رجل ميسور الحال يهيم بها حباً ..
لن يمنعها من إحراق ذاتها (بوابور الجاز) سوى طبيب نفسى من طراز (أدلر) "

{9}

بعد خطبة زادت عن العام ، صنعت خلاله كل ركـــن فى مـــترل الزوجية كما كانت تحلم ، وبعدما فصلت فستانها الأبـــيض كمـــا اختارته من كتالوج العام، و طبعت دعوات الزفاف وشـــرعت فى توزيعها بالفعل ، وبعد تهشم أحلامها بهدوء يبدو مبتذلاً ، وخيانـــة باردة لأمانيها فى وقت كانت تظنها فيه حقائقَ مؤكدة.
وبعد عامين ونصف من مضادات الاكتئاب ، وأربعة وعشرين كليو جراماً زائدة جعلتها أقرب لغسالتها (الفول أوتوماتيك ذات ال18 برنامج) .

بعد هذا كله قررت ليلى البقاء والعودة إلى مدينة الملاهى العملاقـــة المسماة الحياة، ولكن بالصورة التى تستحقها .
قررت تحقيق كافة أحلامها بيديها دون الاتكال على رجل تعلـــق عليه آمالها ، قررت غض النظر عن سنها الخطر إلى حد ما والـــذي شارف على كابوس نساء مصر (الثلاثين) ، وقررت الإصابة بسعار الحياة والاستمتاع بكل لحظاتها.

أعادت اكتشاف ملابسها ذات الألوان البهيجـــة والـــتى كانـــت تدخرها لعش الزوجية ، وأرغمت نفسها على نظام غذائى قـــاس ، وتمارين رياضية أشد قسوة أعادت لها جسدها تقريباً كما كانـــت تعرفه ، وخرجت فى رحلة البحث عن عمل تبذل فيه المزيـــد مـــن الجهد البدنى ، مما يعيد تشكيل قوامها ، وفيه المزيـــد مـــن الجهـــد الذهنى الذى ينجيها من أفكارها الكابوسية بالرغم من اعتراض أبيها

الذى تمنى لو قتل ذلك الوغد الذى ذبح ابنته الأثيرة بسكين من المنطق اسمه (إن فترة الخطوبة هى اختبار ممكن تنجح فيه العلاقة أو تفشل) و (بنتك جوهرة ألف مين يتمناها بس أنا هاظلمها معايا فلازم أسيبها للى يستحقها) ، يقول هذا وهو يخلع دبلتها من بنصره بمنتهى الهدوء ويسلبها عاماً وأكثر من المعارك والأحلام والمؤامرات حتى صار زواجه من ابنته مجرد ترتيبات واستعدادات لم تكتمل بعد.
ابنته التى لم تعرف سر تخليه عنها بدون مقدمات ولا تمهيد ولا حتى مشاحنة صغيرة تحميها من الجنون.
ابنته ليلى التى احتملت شهراً فى صبر ظلت تلوم نفسها على ضياعه من يدها حتى صدمت بزواجه من ابنة ولى نعمته العانس التى تكبره بثلاثة أعوام والتى كتب أبوها باسمها معرض السيارات الذى يديره (المحروس) ، والتى تزوجها فى ذات الشقة التى اختارت هى كل لون فى ديكوراتها ، التى اختارت كل قطعة من أثاثاتها ، التى حلمت بتأسيس مملكتها الخاصة بين جدرانها.
ليلى الرقيقة الحنونة التى ورثت عن أمه ــ جدتها ــ ، عيناها الذكيتان الرائعتان وقلبها المتسامح العاشق للخير.
التى تركت عملها فى شركة الملاحة براتب يعادل راتبه هو ، وهو مدير عام بشركة الكهرباء ، من أجل وغد انتهازى غير مكتمل الرجولة لم يستطع الاعتراف لها بسبب هجره لها.
ليلى ..
التى أصبحت الآن (روبوت) تأكل وتتحدث وتحيا بميكانيكية ، تعترك الحياة كأنها أم كلوم تعول (نص دستة) أيتام ، تفتعل السعادة فى ملابسها الأنيقة وعطورها الفاخرة وانخراطها فى حيوات صديقاتها الشخصية وكأنها رئيسة جمعية للمرأة العاملة.

ليلى ..

التى تبدو الآن أكثر شبهاً بأمه المسيطرة المستقلة (أم الوِلْد) الأرملة ذات الأصل الصعيدى التى ربّت خمسة أشقاء ذكور دون أب بعد موت أبيه فى طفولتهم المبكرة وهو فى حصار (الفالوجا).

ليلى التى يحبها أكثر من شقيقتيها ـ وليسامحه الله فقلبه ليس بيده ـ ولا يرى النور إلا فى ابتسامتها العذبة ولا يعرف الدفء إلا فى عيني أمه المطلة من وجهها الأسمر الحنون.

" إن الكارثة التى تفتح أبواب الجحيم فى وجوه كثيرين وتختار محظوظاً واحداً لتهبه (الجنة) ، إن حدثت فهى تحدث مرة واحدة فى العمر ، أما إذا ما تكررت المعجزة فربما فى تكرارها هذا محاولة لتصحيح الأوضاع الناجمة عن المرة السابقة "

{10}

حين جاء الزلزال فى خريف قاتم كى ينبتر على مقتـــل البكـــرى ويهب لصبور بلقيس (بملحقاتها) ، الذى امتن كثيراً لتلك الكارثـــة و(صان النعمة) هذا شيء ، ولكن أن تجيء السيول فى خريف أشد قتامة كى تمنحه (كنوز قارون) ، فهذا شيء آخر لا يستوعبه عقله، ويرهبه رهاب الموت.

كان صبور يجلس منكمشاً فى كرسيه ، مرتعباً من أفكاره وأحداث حياته غير المستساغة على الإطلاق ، بينما بلقيس تدخن النارجيلـــة الفاخرة وتنفث فى وجهه دخاناً بنكهة التفاح ، مســـتمتعة بـــذعره واحتياجه المتكرر لها كأنه ـــ دائماً ـــ صبى مذعور يخوض تجربـــة (التزويغ من المدرسة) والتدخين على المقهى لأول مرة مـــع رفقـــاء السوء.

كان وجه بلقيس الأبيض المستدير يبدو ساطعاً ، يتلألأ كبدر ليلـــة التمام ، موزرقة البحر الخلابة تصنع له أجمل خلفية طبيعيـــة للوحـــة تنطق كل جنباتها بالجمال الربانى.
كانا فى مقهى بجوار الفندق فى انتظار قدوم (السمســـار) بعـــد أن رتبت بلقيس لهذا اللقاء.
بلقيس ـــ رجل البيت ـــ التى تخطط وتقرر وتنفذ ولا يسعه أمامها سوى الانبهار بأفعالها والتنعم بنتائجها.

ظل صبور يتململ ويتواثب فى قلق يزيد من إمتاع بلقيس لدرجة إطلاقها ضحكة (مصهللة) ، كادت تلم عليهم الخلق لولا دخول أحمد السيد من البوابة وتجواله ببصره بحثا عنهما.

بعد انقضاء غمة السيول ـــ بعدما أعادت رسم خريطة الصعيد ـــ وبعدما تحولت (كلاحين القبلية) إلى (كلاحين الجبل) بمعجزة إلهية ، وبعدما أقامت الحكومة (قرية السيول) بجوارهم وحشرت فيها الناجين من الطوفان.

كان الرعب يسيطر على قلب صبور بعدما هدمت السيول جزءاً كبيراً من جدار الكهف المخفى بداخله البكرى ، وصارت مقبرته قريبة جداً من أيدى العابثين ، خاصة وأن الكهف صار حالياً فى ساحة القرية بعد التغيّر الجغرافى الجديد.

كانت بلقيس ـــ بعدما عثر عليها وعلى البنتين واستقرت الحال بالجميع ـــ هى صاحبة الفضل فى ابتناء دار صغيرة على عجالة تستند على جدران هذا الكهف وتجعله جزءاً منها ، مما يحميهم من عبث أهل القرية به ، خاصة وإن دار نزهة هدمت من جراء السيول، مما دعا بلقيس أن تدعوها وزوجها للعيش فى دار أبيهم المبنية (بالمسلح) ، وتستقر هى وصبور فى الدار الجديدة على الجبل مع باقى المشردين من القرية.

ولكن هذا لم يكفِ صبور ، صحيحٌ أنه قد هدأ نوعاً لبقائه حارساً مقيماً على سره ، لكنه ما زال قلقاً على جثة البكرى التى صارت على بعد متر واحد عن الأرض المطروقة ، وقد يحدث أى شىء يخرج المدفون ويكشف السر ويلقيه فى السعير ، وهكذا فى ذات

يوم هادئ ـــ بحجة تجديد الدار ـــ بعد مرور أكثر من العام على الحادث قضاه يتلوى ، قام صبور بالتنقيب عن قبر أخيه وراح يحفر الأرض الحجرية من الجهة الشرقية ـــ التى كشفها السيل ـــ بعدما اختفت الفتحة المعتادة للسرداب تحت وابل من الصخور المنهارة والأحجار المتكلسة.

تتنهد بلقيس وتميل بوجهها على أحمد ـــ بحجة البوح بالسر ـــ ولكنها كانت تزكم أنفه برائحتها العطرة ، وتملأ بصره بنضرتها ، كل هذا أمام عينى صبور الذى يكظم غيرته ـــ فلا أحد يقدر على بلقيس ـــ وتقول لأحمد فى صوت مشبع بالغنج ، طافح بالدلال :

- لجينا يا خال سلم ضيّج يادوب يساع راجل إسْفَيفْ ، والسلم ده يودى لسرداب ف آخرته جدار صخر ، جينا نهدوه ما انهد ، يادوب بس نقبنا فيه طاجة صغيره طلينا منها لقينا أوضتين ف ريح بعض ، الأولى باينة منجوش عليها تصاوير سمس وطير وشخابيط وحاجات إكده. والتانية مخفية يلزم هدد الجدار عشان نوصلولها ، بس باين ع بابها إحجره مطيولة على كل حجر عروسة بلون لاسفلت ونقوش بلون الدهب.

كاد صبور يموت ذعراً بسبب هذا الاكتشاف ، وظل يلح على بلقيس ويرجوها أن (يردم) هذه الفتحة بما فيها ، خاصة وأنه لم يجد جثة البكرى أو هيكله العظمى ـــ لمرور سنوات على دفنه ـــ وهذا معناه أن لا أحد سيجده غالباً.

كانت بلقيس تتنمر ، وتصرخ فى وجهه أن (يسترجل شوى) ، هذا الكتر فرعونى الطابع يحمل لصاحبه وعداً بالثراء يجعله يزدرى العالم من بعده.

يقول لها صبور إنهم يملكون كثيراً ، يقول لها إنها (داهية) تؤدى إلى هلاكهما وهلاك كل من يشاركهما ذلك ، يتوسل إليها أن تكتفى بأموالهما المكدسة ولا تجعل الطمع يوردهما التهلكة.

فتنهره عن العويل كـ (الولايا) ، إن هذا الذى معهما سيجعلها إمبراطورة تشترى قصرا فى أجمل مدينة فى أوروبا ، تسافر لتطوف أرجاء العالم ، تزين مفاتنها بأغلى الثياب ، تصون نضارتها بأفضل مستحضرات التجميل ، تحيا حياة نجمات هوليود بل حياة الملكات فى دولة متقدمة.

كان صبور يتعلل بموت كل أصدقائه (تجار الآثارات) فى درنكة ، يتعلل (بالتأبيدة) التى يقضيها محمود أبو طه فى طره ، يتعلل بأنهم لا يعرفون طريقاً لبيع هذه الكارثة ولا يوجد من يؤتمن على سر كهذا، يتعلل بأنه لابد من بقاء السر فى طى الكتمان حتى يولى زمانهم على خير.

كان الذعر يقتل صبوراً بينما الفضول يأسر بلقيس وما كانت تتعقل حتى ترى الكتر المدفون وتعرف قيمته ، وربما كان يسيطر عليها أكثر من الجشع والتعطش لمزيد من الثراء.

وحتى دون ذلك كله ما كانت بلقيس سترضخ لصبور ولا لأى مخلوق غيره، بلقيس تفعل ما تريد وقتما تريد ولا يقدر أحد على قمعها.

كانت سيارة البكرى هى الدليل الوحيد على وجوده بالقرية ليلة مقتله ، ولهذا وفى فجر اليوم التالى للحادث قادها صبور إلى الإسكندرية ، وتركها في مرآب ما هناك عرف طريقه حينما كان يقضي أيام الصيف مع زملاء الدراسة بجواره ، كان يترك فيه سيارته البيجو ويستلطف صاحبه كثيرا ، وهكذا ترك له السيارة بحجة البحث عن مشترى جيد لها وطلب سعراً مبالغاً فيه حتى يعرقل البيع ، واستمرت الحال هكذا حتى أتى الوقت الذي ملك فيه الأوراق القانونية التى تتيح له التصرف فى ممتلكات البكرى ، فتظاهر بالرضوخ لضغوط عاطف ـــ صاحب الجراج ـــ لخفض السعر وباعها بالرغم من ذلك فى صفقة جيدة بالفعل ، وكان الذى تولى إنهاءها هو ذلك الشاب (ولد أخت أبو عابدين) المدعو أحمد السيد.

كانت بلقيس ـــ كالعادة ـــ هى مخطط العملية ، ولذلك حينما رآها عاطف أصابه ما يصيب الرجال جميعاً ، صار خاتماً فى إصبعها الانسيابى حريرى الملمس ، وراح يخر أمامها بأسرار تذهب به إلى السجن بغير عودة ، ومن ضمنها (شغل) فى عملات برونزية من العهد البطلمى ، والذى قام به بمعونة أحد قباطنة السفن أصدقائه ، وبعلم أحمد هذا ولكن دون مشاركته.

كانت بلقيس وقتها قد قابلت أحمد الذى ـــ ويا للعجب ـــ لم تدهه النداهة لمرآها ، بل ربما نفر منها وكره تواجدها طوال فترة بيع السيارة ، كان تسلط بلقيس وسيطرتها المطلقة على كل رجل يظهر حولها يثير رعب أحمد ، يهين رجولته تحوله من رجل إلى مجرد

مفتاح معلق فى سلسلة مفاتيح (الست) بلقيس تستخدمه وقت اللزوم لفتح باب ما مغلق فى وجهها ، ثم تلقيه فى بالوعة الصرف بتلذذ ماسوشى النزعة.

كان هذا يرضى صبوراً بشكل كبير ، ولكنه أثار غضب بلقيس وسخطها بصورة مبالغ فيها حاولت جاهدة إخفاءها عن صبور ولكن هيهات ، كان يهينها حقاً انكسار فتنتها أمام كبرياء رجل ، يجرحها مقاومة شاب يافع ـ تكبره بعقد من الزمن على الأقل ـ لسحرها الأنثوى فاتك المفعول.

ولكن بلقيس لم تترك هذا يؤثر على العملية ، وإن ظلت تضمر ذلك فى جنباتها حتى صرحت به الآن فقط ، كان أحمد السيد هو أول اسم اقترحته ليتولى مهمة بيع (الكنز) ، باعتبار أنه (اللى ليه سكة ف تصريف الجرشينات الخواجاتى) ، لابد له من تصريف فى (آثارات الفراعين) ، وهكذا جرجرت صبوراً خلفها كالجدى حتى أجلسته أمامها وهى تتفاوض مع أحمد ، وتحاول أن تقهره أمام نظراته المشتعلة وكأنها أتت خصيصاً لرفع علمها على أرض أحمد السيد ، أتت لإذلاله و(كسر مناخيره) ، وليس (للمصلحة) ، وبات وشيكاً أنها لن (تعاود) النجع حتى يمزق أحمد ملابسه ويعدو ليلاً فى (غيطان القصب) ينادى اسمها وينوح على قلبه الكسير ، ويصير سيرة شعبية فى الوله يغنيها الرواة على ربابتهم فى ليالى السمر.

" إن المرء لا يدرك قيمة الأشياء إلا بعد فقدانها ، ويقسم ألا يتركها ترحل عنه ولو بالدم إذا ما صادف وتكررت فرصة حصوله عليها ، ولكن عندما يحدث هذا فعلياً فغالباً ما يحنث بقسمه دون أن يبذل أى جهد ولو بسيط فى السعي وراءها "

{11}

كان أحمد يقطع الشوارع فى حنق بالغ ، يلعن فى سره كل شيء ، وأحياناً يعلو صوته بالسباب رغما عنه فينظر إليه المارة شـــذراً ، أو شفقةً على عقل (الجدع) ، يمشى فى توتر متخبطاً ، فيصطدم بالمارة ليزداد اشتعالاً ويتورط فى مشاجرات عدة مِصرية الطـــابع تحتـــوى على كثير من (الجعجعة) دون تلاحم حقيقى أو خطر يهدد أياً من أطرافها.

كانت بسمة قد ثارت فى وجهه كعادتها ، واستأنفت حلقة جديدة من حلقات مسلسل (ربنا يخلصنى بقى) ، وزادت هذه المرة لدرجة جعلته يتركها فى وسط الشارع هكذا فجأة ، بدون أى تمهيد ولـــو حتى بكلمة تذمر منه ، وراح يبتعد فى الاتجاه المعاكس بسرعة أقرب للعدو كأنه لا يعرفها ولم يرها من قبل وسط نظراتها المذهولة.

كانت بسمة نموذجاً للأنثى (النكدية) ، (الزنانة) التى لا تمل أبـــدا تكرار ذات الحديث ، لا تمل أبداً إحصاء مرات فشله على مسامعه، لا تمل أبداً إحصاء مرات مساندالها إياه و(تعايره) بالصـــغيرة قبـــل الكبيرة .

كان أحمد قد تورط معها فى علاقة جنسية كاملة هو الذى ســـعى إليها ـــ ربما ليزيد من تورطه معها ـــ وبعدما رضخت لمحاولاته التى استمرت عامين وأكثر ورضخت أخيراً لاحتياجها الفســـيولوجى ، منحته ذاتها فى تمثيلية متقنة منها تجعله (غرر بها) ، ومنذ ذلك الحين

بدا وكأنها قد تذكرت فجأة أن جيرانه يرمقونها بنظرات الاحتقار لكونها تزوره فى شقته وهو أعزب وحيد ، تذكرت فجأة أن خطبتهما تعدت العامين دون تقدم ملحوظ ، تذكرت أنه يهملها وينصرف عنها أياماً لا تعلم عنه فيها شيئاً ، تذكرت ـ وهذا الأهم ـ أنه لابد أن يتزوجها بأسرع وقت ممكن وظلت تضغط عليه حتى تكاد تسحقه.

كانت بسمة قد أدركت خلق أحمد وديدنه جيداً ، أيقنت أنه منذ وقع بها فى لحظة ضعف لعينة من كليهما ، وهو يلوم نفسه عشرات المرات يومياً ، تدرك أنه لم يرحم ذاته جلداً على خطيئته ، وأنه ذهب إلى أبيها مرات ومرات يتوسل له أن يقبل عقد قرانه عليها ولكنّ أباها رفض فى عناد البغال ، وأصر على أن (كتب الكتاب والدخلة ف يوم واحد) ، راح أحمد يختلق الحجج ، وأبوها يختلق الأعذار ، كان على قناعة داخلية بأن هذه هي السبيل الوحيدة لتوبته ، كان حتى فى أزمتهما المشتركة تلك يفكر فى ذاته هو ، خلاصه من وزره هو ، لم يكن يهتم بها من قريب أو بعيد ، حتى يأس الفتى من كثرة المحاولات الفاشلة ، فذهب بها إلى محام ما حرر لهما عقد زواج عرفيًا كالموضة بحضور شاهدين من معارف أحمد ـ الذين لا يقابلهم إلا نادرًا ـ وهكذا أراح ضميره إلى حد ما ، وإن ظل يحلم باليوم الذى يعقد عليها عقداً شرعياً ينجيه من عذابات سقر .

ربما بسبب هذا أدركت بسمة أنها ملكته للأبد ، وأنه صار عبدها المطيع ، تجلده بلسانها ـ حربائى التصميم ـ فلا يملك منها فراراً

وهكذا كانت (تمرمطه) مساءً وتلتقيه فى المدرسة صباحاً بابتسامة مشرقة لأن (اللى فات مات وما يقاش قلبك أسود بقى).

كان أحمد مستمراً فى صب اللعنات على كل الموجودات فى الشارع .. بدءاً بالقطط الضالة وانتهاءً بعواميد النور المظلمة فى التاسعة مساءً فى شارع رئيس من شوارع المدينة ، حتى انزاحت الظلمة بغتة ، وسطع البدر مهيباً جلياً علي الإفريز المقابل.
صحيح أنه يبدو شاحباً لكنه ما زال بدراً وما زال فياضاً بالضوء والأحلام ، فجأة انصرفت عنه شياطين الغضب وحفته ملائكة التنعيم لتلقيه إلقاءً إلى الإفريز المقابل ليجد نفسه أمام (ست الحسن)، وسندريلا الأمل .. ليلى .
ليلى ..
بطلة كل حلم يراوده ليلاً ، وكل وهم يحياه صباحاً .
ليلى بذات عينيها السوداوين الواسعتين ، كأنهما دوامتا بحر فى عتمة الليل تتربصان بصياد غاف لتغرقانه ، وتعمد أحمد السيد أن يصير هو ذاك الصياد.

كانت إشراقة وجهها لرؤيته المفاجئة ــ وكأنها كانت تبحث عنه بين وجوه العابرين ــ أكبر علاج له من إهانات بسمة القاسية ، كانت ابتسامة ليلى الكاشفة عن أسنانها النضيدة ناصعة البياض تنسيه واقعه المليء بأوجاع الفقر، وضعف بنيانه حديث العهد ، وعذابات الحياة بشراكة جلاده المسمى بسمة ، كانت تمنحه الغد المسلوب بيد اليوم الباطشة لتهدهده كالرضيع حتى يقر عيناً فى حضرة روحها الحنون.

كانت تلك أول مرة يلقاها فى الليل ، وكانت ترتدى السـواد وإن احتفظت بلمعان سنها الباسم مما جعلها غريبة بعض الشـيء عـن صورتها الأصلية ، فقد كانت ليلى بالنسبة له (ابنة النهار) دائما مـا كان يراها والشمس مشرقة ساطعة تتوسط كبد السماء ــ حـتى ولو كانت الثامنة من صباح يوم شتوى ملبد بالغيوم ــ ربمـا لأن شمسه الداخلية كانت تشرق لمرآها .

كانت تعشق الألوان وثيابها دوماً زاهية مبهجة متناغمة كأنها لوحة فنية حتى أنه كان يشعر بالحسرة لمرأى ملابس بسمة التى تختار لهـا ألواناً عديمة الاتساق مع بعضها ، وكأنها تعانى من خلل ما بالشبكية يجعلها تختار دائماً القمئ والمنفر والمجهد للعصب البصرى

كانت ليلى هى ليلى ، ذات الدفء الذى يطمئن قلبه لمجرد لمـس أناملها فى مصافحة خجلى ، وإن كانت فى نسخة أقـل بهـاءً ، لم يتبادل معها غير جمل معدودة خاطفة لم تستغرق أكثر من دقيقـتين عرف خلالهما أنها تعمل حالياً فى أحد المصارف الأجنبية ، وعرف أيضاً أى الفروع ، وعرف ــ وهذا الأهم ــ أن أحقاده أتت أكلها أخيراً ، وأنها قد فسخت خطبتها وصارت حرة كاليمامة.

لم يدر كيف تركها تمضى وكيف عاد إلى مترله محلقاً فى سمـاوات الحلم ، غارقاً فى بحور الأمل ، راضياً عن ذاته ، عن الشارع ، عن المشاة ، عن الكون بأكمله ؟.

كان منتشياً نشوة لم يخبرها فى الجنس ، كان سعيداً كأنـه وجـد الحقيبة السامسونايت أباها ، لم يستطع نوماً فى هذه الليلة وروحـه ترفرف بجناحين من حب فى فضاء واسع رحيب لا يحده سـقف ،

لهذا صعد مهرولاً إلى السطح حيث السماء تتزين بالنجوم فى مشهد ينبض بالرومانسية ، وحيث المشهد البانورامى الخلاب لشوارع الإسكندرية باهرة الحسن فى الشتاء ، وحيث الدفء الإنسانى متمثلاً فى العزيز أوزو.

لم يكن أوزو فى مترله تلك الساعة فعاد أحمد إلى شقته منتشيا بخمر الحب ، وذهب ليلقم جهاز الكاسيت شريط (من أول لمسة) أحدث ألبومات منير ، كان من القلائل الذين يهوون سماع محمد منير ، حيث السائد أغانى محمد فؤاد وإيهاب توفيق ومصطفى قمر وحميد الشاعرى، وبالطبع عمرو دياب بعد النجاح الساحق لألبوم (راجعين) ، وهكذا دخل أحمد عالم العجائب كأنه (أليس) مع (يا حبيبي عود لى تانى) ويمزقه الحنين للوصف الرائع لـ (ليلى) التى حتماً كان يعرفها الشاعر مجدى نجيب ليجعلها (ضحكة الرمان).

ظل الكاسيت القلاب ـــ يابانى الصنع فما كان ينحط لاستعمال التايوانى ـــ يكرر وجهي الشريط على التوالى ، حتى فطن أحمد السيد فجأة لكونها السادسة صباحاً.

كان قراره حاسماً ، فلم يكن يومه يحتمل بسمة ، ولا المدرسة ، ولا مهاترات مديرها المتعجرف الذى يظن نفسه ولى نعمتهم برغم كونه موظفاً مثلهم ، يرتجف من تقارير المفتشين ، وتعليمات (كاميليا حجازى) مديرة الإدارة التعليمية.

وهكذا عرج أحمد على المقهى كى يتناول طبقاً من الفول الطازج من عربة بغدادى ، ويجرع الشاى بالحليب ، ويدخن قليلاً وبعدها يتوجه ماشياً إلى البحر كى يستقل أى مشروع ـــ ميكروباص ـــ لوجهته ، كان قراره الذى لم يفكر فيه مرتين ولا حتى مرة واحدة.

هو أن يزور ليلى فى عملها ويحاول إعادة الود ، وهكذا وجد نفسه فى طريقه إلى (رشدى) حيث بنك (الحظ) و(السعادة) الذى يحلم بتحويله إلى بنك (الأسرة السعيدة) ذات يوم.
لكنه فى منتصف الطريق عدل عن الفكرة لكونها لم تتجاوز العاشرة صباحاً، ووجد الأفضل أن يذهب فى آخر ساعات العمل ليقضى معها وقتاً أطول ، وأكثر حرية بعد انصرافها ، فنزل من المشروع وتابع السير حتى وجد نفسه فى الإبراهيمية ولا وجهة لديه يقضى فيها وقته حتى الظهيرة ، حتى لاحت له سينما أوديون فتحرك باتجاهها.

كانت سينما أوديون كما خبرها طوال أعوامه الفائتة (مركزاً ثقافياً هندياً) ، لا تعرض فى حفلاتها سوى أفلام أميتاب باتشان ، هوس المصريين فى تلك الفترة، ولكن دوام الحال من المحال ، لسبب غير مفهوم أقبل الجمهور على الأفلام الهندية بصورة مرضية تثير علماء الاجتماع وصارت (الشعلة والجبابرة) و (مارد) و(التوأمان) مقررات دائمة على منهج كافة وسائل الرؤية ، سواء أفلام السينما أم أشرطة الفيديو أم حتى القناة الثانية طوال أيام العيد ، وكما تصاعد المد فجأة تراجع الجزر أيضاً فجأة فانصرف ذات الجمهور عن ذات الأفلام دون أية مقدمات حتى وجد صاحب هذه السينما نفسه فى مأزق حقيقى وشارف على الإفلاس، فما كان منه إلا إنه اقتنى عدة أجهزة (فيديو جيم) ، التى تعمل بالعملات المعدنية وصار يؤجرها ــ كمصدر مؤقت للربح ـــ حتى تنحسر الموجة فيغير نشاطه تبعاً للموضة السائدة ؛ وهكذا وجد أحمد نفسه (شحط)

يقف عملاقاً بين التلاميذ (المزوغين) من مدارسهم القريبة والمكتظة بهم الصالة ــ برغم خواء الأجهزة من اللاعبين ــ .

كان أحمد السيد بالرغم من نضجه مدمناً لألعاب الفيديو جيم خاصة مقاتل الشارع (street fighter) وكان من روادها الأوائل الذين (قفلوها) فى صالة ألعاب محطة الرمل التى أغلقت الآن ، كان من عشاقها حتى إنه شاهد فيلم (فان دام) المستوحى من قصتها والمسمى بنفس الاسم خمس مرات فى سينما (أمير) ، بالرغم من كون فان دام بطل الفيلم كان يؤدى دور الطيار الأمريكى الذى ليس له تأثير حقيقى فى اللعبة ، والذى لم يكن هناك مجنون (يلعب) به.

ولهذا وجد أحمد نفسه يشترى (كُويْن) ، ويبدأ اللعب ببطله المفضل (كين)، بطل اللعبة الأصلى ، وراح يقاتل فى الشوارع فى محاولة منه للوصول إلى (الزعيم) ، وبدأ الحضور يتحمس لإتقانه اللعب ، وتعالت عبارات التشجيع وتضافرت مشاعرهم معه كأنه (بطلهم فى معركة وطنية كبرى) ، وأثار لعبه حماس بعضهم لمنازلته فى (جيم زوجى) ، وهكذا راح يقهرهم جميعاً حتى استفز مشرف الصالة شخصياً، وهو شاب حديث السن يبدو (ابن 18) و(أكل عيشه) هزيمة رواد الصالة.

كان فتى ظريفاً اسمه عليّ ، راح يمازح أحمد وهما يتباريان أمام تشجيع الجمهور ، ويتبادل السجائر معه ولكن أحمد لم يكن ابن الأمس، كان (يلبّسه) ضربات القوة الداخلية (أدوكن) بصورة متلاحقة خاصة وأن علياً كان يلعب (بالبنت الصينية) ، فتوحد أحمد مع (كين) ، وتخيل هذه البنت بسمة وراح يناولها (تجميعة

الآوريوكن) بانتقام موتور .. لم يرحمها منه سوى دقة الواحدة ظهراً في ساعة الحائط.

ترك أحمد الصالة ــ مع وعد بالعودة فيما بعد ــ ، وخرج مهرولاً ليحشر نفسه حشراً في مشروع ما حتى وصل إلى (رشدى) ، فقطع الشوارع الواصلة للمصرف في سرعة حتى بلغ بوابته الرئيسة في الثانية إلا الربع ، فتوقف على الإفريز المقابل يلهث ويبتسم في انتظار معشوقته.

" إن مصادفة طيف هفهاف لمشاعر نبيلة . قد لا ترقى لكونها حباً . مرة أخرى فى واقع مليء بالمرار لهو أمر يثير الشجن فى النفس ، ربما ليس حسرة وحنيناً لذات المشاعر أو لنفس القلب الذى وهبها وولى فيما مضى ، ولكنه غالباً ما يكون حنيناً لنسخة أطهر وأنقى من ذواتنا تركناها فى الماضى النقى لنمضى فى حاضرنا الملوث "

{12}

انتابت ليلى كثير من المشاعر المتناقضة لمرأى أحمد وهو يبتسم فى نشوة بلهاء تدلى لها فكه السفلى فى مشهد مضحك ، كأنه طفل يريد مفاجأة أمه بالـ (10/10) والنجمة الحمراء اللتين منحتهما إياه (الأبلة) فى (كراسة الواجب).

دهشة عارمة انتابتها ، ثقة مستترة فى سحرها ، إعجاب بمثابرته وسعيه خلفها ، فرحة لثقتها بقدومه من أجلها فقط ، خجل من أن يراه زملاؤها فيبدأون الغمز واللمز والتعليق ، وجيب فى قلبها لتعلقه بها لهذه الدرجة ، مشاعر غريبة عنها لا تقدر على توصيفها.

- أنت مجنون يا أحمد ، إيه اللى جابك هنا ؟

تقولها وهى تتلفت حولها وتسحبه من زراعه إلى شارع جانبى كأنه أخوها (السوابق) الذى تتنصل منه وقد خرج من السجن وأتى لابتزازها.

- ما صدقت لقيتك ومش هاسيبك تضيعى منى تانى أبداً.

يقولها فى تهدج ووله ، كأنه ممثل رديء فى مشهد عاطفى من مسرحية قصر ثقافة إقليمى.

- الله يخرب بيتك ، هاتفضحنى ... تعالى.

تسحبه من يده كأنه طفل تائه تبحث له عن أمه ، وتمضى به فى شوارع عدة متقاطعة حتى بلغت به البحر ، فاستندت على سور الكورنيش أعلى الكبائن فى (ستانلى) ، وتنهدت ثم نظرت إليه فى لوم دون تعليق.

- باحبك يا ليلى وخلاص هاعمل إيه يعنى ، باحبك من زمان قوى ، من اول يوم شفتك فيه وأنا باحبك ، وكنت باتقطع وأنا شايفك بتروحى من أيدى لواحد تانى ، باحبك ومستعد أعمل أى حاجة عشان احافظ عليكى .... وبس.
- مش معقول اللى أنت بتقوله ده ، أنت مراهق يا بنى ، إحنا صحيح اشتغلنا مع بعض فترة مش صغيرة بس عمرنا ما اتكلمنا فيها كلمتين على بعض ... وماشفتنيش غير دقيقتين إمبارح من يمكن 3 سنين ، وجاى النهاردة تقول لى باحبك ....

- مافكرتش فى منظرى هيكون إيه قدام زمايلى لما يلاقوك واقف مستنينى كده ، ما فكرتش فى كلامك ده هيعمل إيه فيا وأنا ف الحالة دى.

- والنبى يا احمد سيبنى فى اللى أنا فيه ، أنا مش ناقصة .

تشيح بوجهها ناحية البحر ، وتتركه يتأملها مرتبكاً ، لا يعرف ماذا يقول بعد هذا الجنون ؟ ، دائماً ما كان لسانه الزلق يضعه فى مواقف عسيرة يصعب عليه الخلاص منها ، وكثيراً ما كان يقول الكلمة ويندم بعدها أياماً وأحياناً سنوات ، ولكن ما باليد حيلة ، ما حدث قد حدث ولقد أراحه هذا الاعتراف كثيراً بعدما عاش سنوات حبيس صدره ، يجثم على أنفاسه ، ويمنعه من منح قلبه لبسمة خالصاً.

صحيح هو لم يفكر فى أى شيء مما قالته ، كان فقط يريد رؤيتها ، يفتعل أى حديث ليستمتع بصوتها الدافئ ، يستنشق أنفاسها العطرة كأنها (برسفونيه) ربة الربيع عند الإغريق ـــ هل كـــان الإغريـــق يعرفونها لتلهمهم أوصاف آلهتهم ؟ ـــ لقد خطط للقاء مختلف معها يتقرب فيه منها أكثر ، يعرفها أكثر ، إنه حقاً لا يعرف عنـــها أى شيء ، ولكن يبدو أنه يفقد عقله أمام فتنتها ، فلا يقدر على شيء سوى أن يفيض حباً كتلميذ الإعدادى حينما يرى جارته الحســـناء فى (المريلة الكحلى).

– أنا آسف بس غصب عنى ، أنا كان نفسى أقولك باحبك من زمان قوى ، أنا مش محتاج لحاجة ف الدنيا قد ما أنـــا محتاج لك يا ليلى.

تنظر فى عينيه نظرة طويلة حائرة بين رغبتين تجاهد كى تقاومهما ، رغبتها العارمة فى صفعه على وجهه لإحيائه للأنثى الـــتى دفنتـــها بداخلها وأراحتها من عذابات هذا الوهم المسمى إفكاً بالحـــب ، ورغبة أخرى فى إلقاء نفسها بين ذراعيه لذات السبب.

بعد لأى تمالكت نفسها ، وانتزعت من حنجرتها رجاءً فى صـــيغة الأمر لتقول :

– سيبنى دلوقتى يا أحمد ، سيبنى أرجوك.

وتركته لتعبر الشارع هرولة ، ثم تختفى فى سيارة أجرة تعود بها إلى منزلها ، بينما هو لا يزال واقفاً فى مكانـــه محملقـــا فيهـــا بعيـــنين

مذهولتين مسحورتين بهذه الحورية بـــاهرة الحســـن ـــ مريضـــة الاكتئاب ـــ .

لم يعرف بعدها كيف وصل إلى بيته ؟ ولا كيف وجد نفسه أمـــام أوزو المنهمك فى تثبيت ضلفة كومود فى طور التشطيب ، بينمـــا العرق يغمره برغم طقس أمشير العاصف شديد البرودة ، كأنـــه فى إعلان تلفزيونى عن كفاح العمال ، وراح يلح عليه أن يدخل معه قليلاً يحدثه فى موضوع مهم وعاجل لا يقبل التأجيل ، ولكن أوزو كان منهمكاً بالفعل ، فتركه أحمد على وعد منه أن يمر عليه مساءً، ودلف بعدها إلى غرفته وحيداً ولكن مشاعره المتزاحمـــة فى قلبـــه وأفكاره المتضاربة فى عقله لم يتركا له مجالاً للوحدة .

يجلس أحمد على الكنبة متدثراً بالغطاء أمامه بابور جـــاز المشـــتعل يتدفأ عليه، ينبعث من الكاسيت أغنية "كل الحاجات" لمحمد منير، الصادرة ضمن ألبوم "شيكولاته" عـــام 1989 ، حـــتى قـــاطع الموسيقى طرقات إيقاعية على الباب يصاحبها صوت أوزو.

نهض متثاقلاً ليفتح الباب ، فدلف منه أوزو مرتعشاً ، وألقى بنفسه على الكنبة بجوار صديقه وهو يفرك كفيه طلباً للدفء .

أوزو متسائلاً : عندك شاى؟
نهض أحمد مبتسماً وهو يناوله علبة السجائر ويبدأ فى إعداد الشاى، بينما أوزو يشعل سيجارة من البابور.
أوزو : لأوضة عندك دفا ، أنا عندى صواريخ هوا فرق.

أحمد : ربنا يكون ف عونك السطح صعب قوى ف الشتا.

أوزو يصغى قليلاً ، يمتعض وجهه:

– إيه يا بنى اللى بتسمعه ده ؟

وضع أحمد البراد على البابور وجلس بجوار صديقه:

– ده محمد منير ياعم الحاج

أوزو مستنكراً : أنا مش عارف أنت بتسمعه إزاى

أحمد فى حماسة كأنه يدافع عن مذهب دينى :

– ده أحسن واحد بيغنى ف مصر.

أوزو فى سخرية :

– أنت هتكدب ، كل شهر مجلة الشباب بتعمل استفتاء أحسن المطربين والشرايط، وكل مرة محمد منير بتاعك ده يطلع الأخير وللا قبل الأخير بالعافية.

أحمد يصب الشاى ويناوله لصديقه (مبتسماً) :

– عشان فنان سابق زمنه ، محدش هيقدره غير لما يموت زى كل العظماء

أوزو فى تأمل : فعلاً معاك حق ، البلد دى مدحش بيتكرم فيها غير لما يموت.

أوزو : عارف وأنا في اليونان ، كنت باشغل لهم في المصنع شرايط أم كلثوم ماكانوش فاهمين منها حاجة ، بس كانت بتعجبهم قوى.

أحمد : أنت صحيح ليه روحت اليونان بالذات؟

أوزو : بعد ما طلعت م الجيش مالقيتش صنايعى في مصر.

أحمد : أه أنت كنت في أيام الحرب صح؟

أوزو باستنكار : أيام الحرب! يابنى أنا واللى زيى هم الحــــرب ذات نفسها ، أنت ما شوفتش نجمة سينا اللى عنـــدى فـــوق دى؟ ده الريس السادات الله يرحمه سلم عليا بنفسه.

أحمد : أيوة يا عم شفتها ، والله مصدقك.

أوزو : لا أصل أنت مش فاهم ، أنا كنت سلاح مهندسين؟ يعنى أول ناس عدت القناة، إحنا اللى وصلنا الكبارى عشـــان الجـــيش يعدى ، مش بس كده، السرية بتاعتى كانت بتكسح الألغام اللـــى زرعوها اليهود ورا خط بارليف عشان دبابتنا تتقـــدم فى ســـينا ، كانت النار حوالينا من كل حتة ، م الأرض و الســـما م الشـــرق والغرب ، موضوع كبير يعنى.

أحمد : ده أنت كنت بطل بقى.

أوزو (يسرح فى الذكرى) : وأى بطل يا بنى ، الصـــراحة الســـرية كلها ، لأ الجيش كله كانوا أبطال.

أحمد : ومش بتشوف حد من زمايلك لحد دلوقتى؟

أوزو : كل فين وفين ، الدنيا توهتنا بقى.

(يضحك بسخرية) ولا أحنا أصلا توهنا أول ما خرجنا م الجيش.

أحمد : إزاى يعنى ؟

أوزو (بسخرية مريرة): طلعنا لقينا البلد مافيهاش صنايعى واحـــد ، مفضلش فيها غير بياعين البلوبيف والسفن آب والقمصان المشجرة.

أحمد : وبعدين عملتوا إيه لما لقيتوا كده ؟

أوزو : واحد زميلى قدم طلب تعيين في الحكومة قاموا شغلوه فراش ف مدرسة ، وواحد تانى راح اشـــتغل عتـــال في المينـــا، واللـــى ماستحملش ، سافر السعودية ولسه مارجعش لحد دلوقتى.

أنا بقى ما حبتش جو الخليج ده كنت عايز أروح أوربا على طول جيت أروح إيطاليا معرفتش ، جت ف سكتي اليونان وقعدت فيها لحد ما أبويا الله يرحمه تعب.

أحمد : الله يرحمه .

أوزو : كان يونس أخويا اتجوز واخواتى البنات على وش جواز، يا دوب أبويا مكملش سنة عيان وراح للى خلقه ، لقيت نفسى شايل حملهم لحد ما شورتهم التلاتة ووصّلتهم لبيت رجالتهم. عشان يرجعوا بعد كده ينكروا خيرى.

أحمد : معلش يا أوزو أنت عملت اللى عليك.

أوزو بمرح مفاجئ كأنه يحاول تجاوز أحزانه يميل ليسأله :

- المهم كنت هتولد ليه عشان تكلمنى العصرية ؟
- أنا باحب يا أوزو ، باحب قوى وبجد وهاموت عليها.

كان أوزو يعض على شفته السفلى ، وينتقى فى ذهنه أشد الألفاظ بذاءة كى ينعت بها صديقه عديم المسئولية الذى يريده أن يترك (أكل عيشه) من أجل هذا الكلام الفارغ ، ولكن أحمد لم يمهله واستأنف :

- مش الزفتة خطيبتى ، دى بنت بحبها من زمان قوى وشوفتها النهاردة وقولتلها باحبك وبقالى سنين بحلم بيها لحد ما قابلتها.

كانت دهشة أوزو بادية على ملامحه وهو يسمع هذا الكلام لأول مرة ، منذ عامين وأكثر وأحمد لا حديث له إلا عن بسمة ـ التى ظلمها أبوها حينما اختار لها هذا الاسم ـ ، بسمة التى يحبها أحمد لدرجة الوله أياماً ويلعنها بمنتهى المقت أياماً كعادة أى زوجين أو

خطيبين فى مرحلة ما بعد (الورد والدباديب) ، أول مرة يعرف أن هناك أخرى، بل والأدهى أنها موجودة ومؤثرة وقد تكـــون (قـــدم يمين) هذه المرة.

- أنا مش فاهم حاجة ما تحكيلى المشوار من أوله عشان أقدر أفيدك.

فى حوار مستفيض مشبع بالتفاصيل المهمة والهامشية حكى أحمـــد لأوزو كل شيء ـــ بالطبع ماعدا علاقته الجنسية ببسمة والتى يظنها أوزو لا تتعدى القبلات والأحضان المعتادة ـــ وبعدها سأله أوزو :

- يعنى أنت بتحبها للدرجة دى؟
- ياااااااه وأكتر مما تتخيل ، دى حلم حياتى يا أوزو.
- طب وهى بتحبك؟
- ماعرفش ، بس كل اللى أعرفه أنى بحبها قوى يـــا أوزو ، ونفسى تكون من نصيبى.
- مادام ما معاكش فلوس يبقى متفكرش من أصله.
- وهو الحب كمان محتاج فلوس؟ كل حاجـــة بـــالفلوس ، الفلوس مش هى كل حاجة.

أوزو (ينظر له باحتقار) : إنت اهبلت ولا إيه؟ الفلوس طبعا كـــل حاجة في الدنيا.

أحمد معترضاً : لا طبعا ، الفلوس ما بتشتريش الصحة ، ولا الحب ولا راحة البال.

أوزو ينهض (بانفعال) : فوق يا أحمد م الهطل ده ، أديـــك قاعـــد تعيط على حتة بت وإحنا بنام باليومين من غير عشا ، الفلوس هى

كل حاجة ف الدنيا دى من يوم ما ربنا خلقها، والهبل اللى زيـك بس هما اللى بيتكملوا بفلسفة فارغة .

أحمد ينظر له غير مكترثٍ مما يزيده حنقا ، يجلس بجواره ، يضع يده على كتفه يتحدث بهدوء كأنه يلقنه درساً .

أوزو : شوف يا أحمد يا حبيبى .. الفلوس هى اللى تقدر تشـترى بيها البيت اللى تتجوز فيه البنت اللى بتحبها ، تشترى الأكل اللى هتطبخهولك بإيديها ، تشترى راحة البال إللي تطمن بيها لبكرة حتى الصحة .. يمكن الفلوس ما تعرفش تشتريها، بس اللى عنـده سرطان ومعاه فلوس .. يقدر يشترى بيها مسـكنات للوجـع ، أوضة نظيفة ف مستشفى ، يشترى بيها الدكاترة والممرضة اللـى تخدمه ، يشترى كل حاجة تخفف وجعه وتخليه يسـتحمل آخـر ساعات العمر ويموت بكرامة .

تدمع عيناه ويختنق صوته فيتنحنح ثم يستأنف :

ـ لكن أهالينا بقى ، ماحيلتهمش غير الصـوات ف عنـبر أورام مستشفى حكومة كأنه معتقل وفي الآخر يموتوا من غير ما حد يحس بيهم ويتدفنوا ف ترب الصدقة من غير حتى ما تتكتب أساميهم ع الرخامة بتاعتها.

يصمت هنيهة ، وأحمد يتأمله غير مصدق لما سمعه تواً.

أوزو (ينهض) : أنا ماشي هاروح أنام عشان أفتح من بكرة بدرى، يمكن ربنا يرزقنا بحق العشا والسجاير

أحمد معقباً فى أمل واه :

– يمكن بتضيق علينا قوى عشان تجيب آخرهـا ، وبعـدين تفرج من وسع ع الآخر.

أوزو : يا رب تفرج قوى ونعرف نطلع م البلد اللى مكلبشة فينا زى القراضة دى ، سلام.

يختفى أوزو فى ظلمة السلم صاعداً لغرفته ويترك أحمد لذاته الخرساء يسألها ولا تجيب.
هل فعلاً تحبه ليلى ؟ ، فرحتها لرؤيته تؤكد ذلك ولكن هذا ليس كافياً ، عله موهوم.
وإذا أحبته فهل ستقبل به زوجاً؟ ، وضعه المادى الحرج ينفى هذا.
فإن قبلت ، وهذا هو الأهم ، ماذا سيفعل ببسمة ؟ ، يهجرها بعد كل هذا ؟ ، يتركها دون أن (يسترها) ، كيف سيحتمل وزرها على رأسه يوم القيامة ؟ ، إن كانت هى لا تستحقه كزوج فهى أيضاً لا تستحق فضيحة كهذه ، وهو أيضاً لا يحتمل أن يصير نذلاً خسيساً لهذه الدرجة من الدونية.

إذن يبقى على بسمة وينسى ليلى ، ليلى التى خلقت لتصنع من زوجها أسعد الرجال وهو يطمع فى أن يكون هذا الزوج.
تتزاحم الأسئلة فى رأسه ولا يجد لها جواباً ، ويظل يتلوى فى فراشه حتى يهده الإعياء والسهاد فيغيب فى ثبات طويل بلا أحلام تقريباً.

" إن الرجل لا يستشعر بؤس حياته وكآبتها حتى إذا ما صادف حياة أجمل منها ،
إلا حينما يكون هناك من يوسوس له أنه يستحق الأفضل وأنه يملك تحقيق ذلك "

{13}

كان رفض أحمد السيد لتوسطه فى بيع محتويات مقبرة الجبل قاطعاً ، ومما زاده إصرارا وجود بلقيس ومحاولاتها المستمرة لاستمالته ، بلقيس المرأة الواثقة الآمرة التى ينصاع لها رجال أشداء كأنها (صاحبة كرامات) ويصيرون تحت فتنتها جنوداً مجندة فى إمرة قائدهم.

بلقيس التى تذكره بدليلة قاهرة الشاطر حسن رأس الغول ، ومن بعده ابنه على الزيبق الذى لم يقدر عليه صلاح الكلبى بكامل سلطانه.

بلقيس التى اتخذته نداً فى معركة النوعين على سيادة الجنس البشرى

كان رأى عاطف أيضاً قاطعاً ، فهو ـ عاطف ـ ليس ابن البارحة بالفعل ، بالرغم من انبهاره ببلقيس وسقوطه فى براثنها ، إلا إنه كان يحاول أن ينال منها أى شيء بشرط ألا يدفع مقابلاً يؤذيه ، ولهذا فحينما اتصلت به بلقيس وطلبت منه تحديد لقاء مع أحمد لم يتردد ولكنه حذر أحمد كثيراً جداً منها ومن خطرها الداهم على أى رجل يقترب منها ، كأنها نافخ الكير الذى إما أن يؤذيك ريحه أو يلفحك لهيبه لا يأتى من ورائها خيراً إلا لذاتها ، ولهذا فقد حذر أحمد كثيراً من التورط معها فى تلك الصفقة المشبوهة ، خاصة وهى تريده أن يبيع من أجلها (تهمة تودى ورا الشمس) ، فلا أحد يعبث مع مباحث الأثار فى مقتنيات فرعونية اللهم إلا (العضمة التقيلة) الذى لا تطوله يد القانون.

إن مباحث الآثار قد تتهاون مع أى أثر من أية حقبة تاريخية أخرى ولكنها لا تعرف الهزل عندما يتعلق الموضوع بالفراعنة ، ولهذا ولأن بلقيس وصبوراً ليسا أهلاً لثقة أحد حتى ولو كان أبله ، فكان لا بد أن يضغط عاطف على أحمد حتى ينسى الموضوع ، وهو ما صادف هواه الشخصى فعلياً فتهرب منهما باقى فترة وجودهما بالإسكندرية، ولكن أوزو ...

إبليس الذى ظل يجمل من الشجرة المحرمة حتى أكل منها آدم ، ظل يعد أحمد بالمجد والشهرة والثراء كأنه فاوست.

كان أوزو يعرف كل شيء ، وخاصة أن بلقيس اتصلت بأحمد عند (أم خليل) مالكة الهاتف الوحيد بالشارع ، ولم يكن أحمد موجوداً فاستقبل أوزو المكالمة كعادته فى المواقف المشابهة.

كان أوزو لا يحلم بالثراء ، فقط كان يحلم بثمن تذكرة الطائرة والتأشيرة التى تنجيه من هذا الفقر ، وتعيده لأوروبا ــ الجنة من وجهة نظره ــ ، لذا راح يلح على أحمد فى قبول العرض بل وتحمس لمشاركته إياه وحاول تذليل جميع العقبات أمامه.

كان أحمد كلما تناسى الموضوع ذكره به أوزو ، راح يعدد له مظاهر الشقاء التى يحياها ، يعدد له مظاهر النعم التى سينالها ، كان يضغط عليه وهو يقاوم ، حتى ضغط أوزو على نقطة ضعفة التى تقهره .. ليلى .

ليلى التى أفسدت عليه قناعته بحلاوة الماضى الكاذبة ، وصبره على آلام الحاضر المهلكة ، وأمنياته للمستقبل غير المنطقية.

كان أحمد قد تهور للمرة الثانية بالرغم من خصم ــ نصف راتبه وإنذاره بالرفت بسبب غيابه المتكرر ــ وذهب فى ذات صباح باكر لكى يجلس على مقهى فى ذات الشارع الواقع فيه المصرف الذى تعمل به ليلى ، واستقر على مقعد يرى الشارع بوضوح وظل ينتظر ظهورها.

مع اقتراب الثامنة وجدها عند أول الشارع تتألق فى طريقها لمقر عملها ، تمشى فى حزم وصرامة لم يمنعاها من نثر البهجة على كل الموجودات فى طريقها ، كانت تشع نوراً وعطراً ورونقاً ، فما أن رآها حتى انطلق ليتقطع عليها الطريق ، ودون كلمة واحدة كان يقتادها هو هذه المرة إلى ذات الشارع الجانبى ليبثها حبه ولوعته فى عبارات طويلة متلاحقة بأنفاس متهدجة وقلب صادق الإحساس يتغزل فيها كأجمل ما سمعه هو شخصياً ــ مع كثرة قراءته لشعر الغزل ــ .

كانت تتلقى منه كلمات لم تتلقها عبلة من عنترة الذى خلد حبها فى أشعاره ، كان أحمد السيد يبدو وكأنه قنبلة هيدروجينية محملة بإشعاعات الحب المكبوت طيلة سنوات الطفولة والمراهقة والشباب البكر المعذب على يد بسمة ، ثم انفجرت فجأة فى وجه أول غافل عبث بها.

وكانت ضحيته هى ليلى.

المسكينة التى ظلت تحيا أعواماً فى عطاء مستمر لكل من حولها دون أن تحصل على شيء ، ليلى المستنزفة شعورياً ومادياً ومعنوياً من قبل

كل المحيطين بها دون أن تسألهم عليه أجراً ، ليلى التى كانت تحلم برجل يحبها ويبذل فى سبيلها قليلاً ، فقط قليلاً من الجهد الجاد.
ليلى التى لم تحتمل عذابات أحمد الصادقة فى جفائها إياه.

لم تعرف هى ولا حتى هو كيف تحركا معاً متشابكى الأيدى مبتعدين عن كل شئ حولهما ؟ ، لا تعرف كيف وجدت نفسها تجلس فى مواجهته على مائدة إحدى مقاهى الكورنيش ؟ ، تصدم لوجود أخرى فى حياته هى أحق به منها ، تستمع لشكواه من (تباريح الهوى ولوعة الفراق) ، تتلقى توسلاته لها أن تبقى معه بلسان عاجز عن النطق ، يطلق فى وجهها عبارات الغزل التلقائية النابعة من قلبه الصادق فتخترق قلبها المحطم المتعطش للحب ليرويه.

طالت جلستهما النهار بطوله فى أحاديث تتخللها دمعات تنسال من كليهما بالتبادل ، شكاوى من حب سابق ومواساة يتبادلاها فيما بينهم ، لمسات خجولة منه لأناملهما البلورية الدقيقة.
كان أحمد وليلى أكثر شخصين متوافقين فى هذا العالم ، أكثر زوجين يبشران بحياة سعيدة هانئة ، ربما لهذا استحال الجمع بينهما.
كانت ليلى نبيلة بصدق ، لا تقبل أن تبنى سعادتها على أنقاض تعاسة بسمة ، حتى ولو كانت هى تستحق ذلك ، خاصة وأنها ذات خبرة سابقة مع ذات الموقف وما قاسته منه تنوء بأخرى أن تقاسيه.
كانت تشفق على غريمتها التى لم تختر أن تكون أقل منها جمالاً ، وبهاءً ، وذكاءً ، وروعة.

التى لم تملك إلا أن تكون أشد منها حدة ، وعصـبية ، وسـلاطة لسان ، وضيق أفق.

كان قرار ليلى حاسماً ـ كحكم بائن غير قابل للطعـن ـ وهمـا يجلسان متلاصقين على سور الكورنيش يرمقان الشمس الغاربـة ، وهى تغرق فى البحر ببطء ، فتنتشر دماؤها على سطح المياه الثائرة وكأنها المعادل الطبيعى لحبهما المذبوح بسكين الأمر الواقع.
فقط طلبت أن تفعل شيئاً ليس من حقها لمرة وحيـدة فى عمرهـا كله، أراحت رأسها الدقيق على كتف أحمد ، وتركـت شـعرها فاحم السواد ، عطر الرائحة يدغدغ كيانه ، وينتزع من قلبه آخـر آثار بسمة ، وبالمقابل طلب منها هو الآخر شيئاً دون أن ينطـق ـ فقد كانت عيناه تتحدثان ببلاغة شعراء العرب الأقدمين ـ مـال عليها كى يلثم جبينها الوضاء ويرشف قطـرات عـرق الخجـل المتزاحمة عليه.
كانت ليلى تملك حواسه الخمس وتشبعهم.
حسنها الأسطورى يبهر بصره.
صوتها ـ نغم الملائكة ـ يطرب مسامعه.
عطرها ـ فردوسى الرائحة ـ يثير خياشيمه لأبعد مدى.
ملمسها الحريرى يبعث رجفة النشوة فى أعصابه.
طعمها الذى لم يكد يتذوقه يشبع قلبه النهم للحب.
كانت ليلى نموذجاً لفتاة أحلامه التى لم يعترف لنفسه بوجودهـا ، كانت تستحق أن يحيا عمره لأجلها وما كان يطمـع حـتى فى أن تبادله المشاعر ، فقط كان يريد منها أن تسمح له أن يحبها.

ولكن كما قالت له فهو ملك لأخرى أحق منها بوجوده بجوارها ، أما هي فملك لوحدتها التي ألفتها ، وليبق ما بينهما ذكرى جميلة يسترجعها أحدهما في لحظات الشدة ليستطيع تحمل حياته القاسية دون وجود الآخر وكفى.

ورحلت ..

تركته للأبد مع رجائها ألا يحاول أن يراها بعد اليوم حتى تدوم ذكرى هذا اللقاء حتى آخر العمر.

رحلت (ابنة النهار) ورحلت معها شمسها لتتركه وحيداً وسط سيادة الظلمة على السماء والأرض وعلى روحه البائسة.

" إن المرء ليحتمل الفقر وغلبة الدين وقهر الرجال طالما انقطعت به سبل التغيير ، ولكن إذا ما لاحت له ولو ربع فرصة فى الأفق لسعى خلفها بكل ما أوتى من قوة حتى ولو نازعته عليها كل كواسر البرية "

{14}

يقف أوزو على السلم الخشبى بــ(فانلته) الداخلية التى تبرز تكوينه العضلى دقيق التشريح ليعيد توجيه هوائى التليفزيون أنيس لياليهم ، خاصة تلك الأمسية الهادئة المنعشة بفعل نسائم ليل الصيف.

كان أحمد يقف فى مواجهة الموقد الصغير يمسك بكنكة القهوة التى يعدها ، بينما عقله شارد فى مكان وزمان آخرين ، تائه بين جمــال الحياة فى وجود ليلى وتعاسة أيامه بدونها ، حتى فارت القهوة وفسد طعمها فصب لأوزو ولنفسه باقى السائل المحترق فى كوبين صغيرين ، وأشعل سيجارة من علبته شبه الخاوية ، وراح يتأمل تتابع الصور على الشاشة دون أن يعى شيئاً كأنه يتابع فيلما تركيا غير مترجم ، حتى فرغ أوزو مما يفعله وجلس بجواره كى يتابع (مايكل كيتــون) وهو يرتدى زى الوطواط ويجاهد لإنقاذ (مدينة جوثام) من البطريق (دانى ديفيدو).

- يع إيه القرف ده يا بنى آدم.

يقولها فى اشمئزاز بعدما ذاق قهوته رديئة الصنع ، المغليــة إلى حــد الاحتراق.

- بحبها قوى يا أوزو ، مش عارف أعيش من غيرها.

كان أوزو قد مل ذات الحديث طيلة الشهرين الماضيين ، لا ينفــك أحمد أن يصارحه بحب ليلى بمناسبة ودون مناسبة حتى صار سمــج المعشر ، مملاً كطفل مدلل لا يتعب من (الزن) كى يشترى له أبوه لعبة (سلاحف النينجا) باهظة الثمن.

يتنهد أوزو ويقول فى ضيق واضح :

- يا تقعد ساكت يا أحمد ، يا تنزل تقعد ف بيتك عشان ما نزعلش من بعض ، أنا زهقت منك ومن سيرة البت دى.
- بحبها يا أوزو ، مش قادر أستغنى عنها ، مش عارف أشوف غيرها ، ما تستحملنى شوية يا أخى.
- ما أنا قلت لك الحل بدل المرة ألف ، اللى أعرفه إن الحب آخرته جواز تروح زى الشاطر وتطلبها من أبوها وتسيبك من أم ضب اللى معاك دى مادامت منكدة عليك عيشتك.
- إزاى بس أروح أطلبها من أبوها ، يا عم هى فين وأنا فين ، دى بنت ناس قوى وأهلها مرتاحين وأنا بقيت خالى شغل مش لاقي حق السيجارة.

كان أحمد قد تم فصله من عمله بسبب غيابه المتكرر بدون عذر ، وبسبب حضوره شارد الذهن (اللى زى عدمه) فما كان من مدير المدرسة إلا أن وجد فرصته القانونية للخلاص منه ، فألقاه فى الشارع يتسول عملاً يغنيه عن سؤال الناس.
وربما كان هذا أفضل فما كان أحمد يحتمل رؤية بسمة كل يوم بعدما صارت بالنسبة له كحجرة الفئران التى سيحبسونه فيها بعد حين لأنه أخطأ ووقع بها.

صحيح أنه لم ير ليلى منذ شهرين وأكثر إلا أنها مازالت تحيا بداخله ، لا يملك منها فكاكاً ، وكانت بسمة تزداد بغضاً كلما زاد جفاؤه ، فكان هذا يزيده مقتاً ، وهكذا حتى صارت بالنسبة له (مالِكاً) الذى ينتظره كى يلقي به فى الدرك الأسفل من النار.

يقول أوزو :
- شوف يا أحمد الفرصة جت لحد عندك وأنت رفستها ، العملية بتاعة الصعايدة دى كانت ممكن تخليك باشا تدخل أى بيت وتحط رجل على رجل وتطلب ست الحسن والجمال ، بس أنت فقري عاجبك حالك كده وأنت عمال تعدد على بت ، وإحنا بننام باليومين من غير عشا، يا راجل بلاش هبل وفوق بقى.

كان أحمد فعلاً يعتقد أن فقره هو المسؤول الأول عن تعاسته ، ربما لو امتلك المال لاستطاع أن يتخلص من بسمة ، كان سيعطيها ما يكفي أن يجعلها تستغنى عنه وربما تستطيع أن تجد طبيباً يجرى لها جراحة ترقيع و(يسترها) دون اضطرار أحمد للزواج منها ، ربما لو امتلك مالاً لاستطاع أن يتزوج من ليلى بصورة تليق بها ، لاستطاع أن يسعدها و يصنع لها حياة الرغد التى تستحقها ، ربما يستطيع أن يؤسس مشروعاً تجارياً يستغل فيه خبراته ، ويكسب من ورائه الملايين.

ولكن السبيل لهذا المال محفوفة بمخاطر مباحث الآثار وطمع صبور وكيد بلقيس الذى لا يقدر عليه رجل..
أحمد : يعنى لو كنت طاوعتك وخدنا الفلوس كنت هتعمل بيهم ايه؟
أوزو حالماً : ياه يا بنى ، هروح أطلع الفيزا مرتاح ، وأهج م البلد دى.
- يعنى ما تفكرش تعمل مشروع هنا
- هنا إيه يا بنى ، البلد دى مش بتاعت شغل.

- ليه يعنى ما الناس عايشة ومرتاحة.
- الحرامية والصيع بس هما اللي معاهم فلوس، أنـــا شـــفت الموت 100 مرة فى الحرب عشان أطلع م الجيش ألاقـــى بتوع الفراخ الفاسدة بقوا مليونيرات، البلد دى عايزة اللى يهبش ويجرى مش اللى عايز يشتغل.
- وأنت يعنى لو سافرت برة هتشتغل إيه؟
- أشتغل بصنعتى يا بنى ، ده أنا كنت باكسب دهب ، لـــو كنت قعدت سنتين كمان كنت فتحت ورشة بحق ربنـــا تخلينى باشا.
- مش عارف بس أنا لسه عندى أمل في البلد دى.
- أوزو (يسخر) : خلى أمل تنفعك بقى ، ما انت بقالـــك سنين مكفى ع الدركسيون عمرك ما حلمـــت تشـــترى لنفسك عجلة.
- إنت تعرف إن أنا بَعت جواب لواحد صاحبى في اليونـــان ماشاء الله ربنا فتح عليه وبقى عنده مطعم سمك كبير قوى ف أتينا ، وكلمته ع المصلحة وهو عنده اللى يشترى.

أحمد فى ذعر بالغ :

- انت مجنون؟!! إزاى تعمل كده ، إفرض الجواب ده وقـــع في إيد حد ، نروح في شربة مية ، ده احنا حتى ما نعرفش إيه اللى ف المقبرة، وبعدين إحنا مالناش دعوة بيهـــا همـــا زمالهم صرفوا حالهم بعيد عننا.

يضحك أوزو فى سخرية ويستطرد :

- أنا لسه مكلم أم هالة من يومين وقالت إنها مستنيانا وكله تمام ، وإحنا مش شبهة عشان حد يفتش ف جواباتنـــا، ثم

إن جابرييل صاحبى ده راجل جدع وما يبيعش صحابه
وأنا ياما خدمته هناك وهو مستعد يشيل اللى نلاقيه.

كان الذهول يعترى أحمد ، خاصة حين وصف أوزو اللعينة بلقيس بأم هالة ، مما يعطيه إيحاء بالود ، والألفة التى تكونت بينهما مما يدل على علاقة متصلة بينهما ، بينما هو غافل فى رثائه لنفسه ولعناته لبسمة.

- أنت عايز تورطنا معاهم باعافية ، أنا خايف يا أخى م الشغلانة دى.
- يا أحمد فوق بقى ، دى آخر فرصة لينا عشان نعدى الفقر ونبقى بنى آدمين ، البيت هيقع على دماغنا ومالناش حد نتكل عليه ، أنت عايز تتجوز البنت اللى بتحبها ، وأنا عايز أهج م البلد دى وبلقيس متعلقة بيك ومستنياك بفارغ الصبر ، فاضل ايه تانى ، يا عم هو أحنا عندنا ايه نخسره ، خليها بقى يا طابت يا اتنين عور.
- بس يا عم دى شغلانة وقعتها والقبر.
- وماله ، على قد المخاطرة على قد المكسب ولا إيه يا عم التاجر يا بتاع الصفقات.

كان أوزو يرى أن هذه المقبرة تحتوى على كنوز على بابا التى ستجعلهم جميعاً مليونيرات يشترون الأحلام بنقودهم ، ويحصلون على السعادة بشيك بنكى من حساباهم الضخمة.

صحيح أهم يقولون إن المال لا يشترى السعادة ، ولكن هذا فى أفلام ما قبل ثورة يوليو التى كانت تصدر للمجتمع الكادح أفكار

السراية التى تقمع تطلعاهم لمنازعة سادهم أرباب الباب العالى فى حياة النعيم ، أما عند أى شخص طبيعى فى الحياة الواقعية فإن المال هو بالفعل مفتاح السعادة ، حتى لو كان مريضاً بالسرطان فإنه سيشترى بنقوده ما يجعل نهايته آدمية محتملة الألم ، كما قالها أوزو من قبل .

ولأن المال قابل لتحقيق الجنة على الأرض فقد شددت الأديان السماوية على مصدر هذا المال ، وقننت شرعية الحصول عليه وجعلت فيه نصيباً للمحتاجين.

كان أحمد يدرك أن (أوزو) يتحدث بالحق ، خاصة وأنهما أشد الناس احتياجاً لهذا المال ، وكانت صورة ليلى وهى مسبلة الجفنين ورأسها مستقر على كتفه لا تفارق مخيلته ، كان يتمنى أن يستأنف علاقته بها ، يتمنى أن يرشف من شهد شفتيها حتى يرتوى ولن يرتوى ، يتمنى أن يضاجعها مئات المرات فى الحقيقة كما فعلها فى أحلامه ، يتمنى أن يعود منهكاً من عمله مساءً ليجد ابتسامتها المشرقة فى انتظاره لتنسيه متاعبه.

ذلك الجدار الصخرى الذى يسد مدخل المقبرة كان يبدو كأنه يسد الطريق لأحلامه ، لجنته المرجوة على الأرض ، والأهم من ذلك سبيل الخلاص من بسمة.

وكان أوزو يبدو كعملاقاً أسطورياً مستعداً أن ينهش لحم أى شخص يمنعه من بلوغ مأربه ، وهذا يطمئنه نوعاً خاصة إنه لا يقدر على مجابهة بلقيس بكل جيوشها وحده.

" إن الذى عاش عمره دون أية مبادرة منه لاتخاذ قرار ما بمفرده ، حينما يتحرك أخيراً لتنفيذ قرار واحد نابع من ذاته ، غالباً ما تؤدى فعلته تلك إلى كارثة تدمر كل من حوله .. وهو على رأسهم "

{15}

ترتج السيارة السوداء ذات الدفع الرباعى ، بفعل سوء حالة الطريق غير الممهدة ، والتي لم تستطع متانتها ورفاهيتها مقاومتها فصارت أقرب لـ (مراجيح أبي العباس) ، بينما أحمد السيد يجاور أوزو فى مقعدها الخلفى الوثير ويصطدم به مع كل مطب لتنطلق لعنات بلقيس لقيادة صبور المستهترة وهى تتقافز بجاوره على المقعد الأمامى للسيارة خلال رحيلهم جميعاً إلى المجهول فى رحلة طويلة ، طويلة كما يجب أن تكون نموذجاً لرحلات صيد الجوائز واختراق الوديان وشعاب الجبال بحثاً عن الثراء .

لم يصمد أحمد كثيراً أمام مجادلات أوزو المنطقية ، وتنكيد بسمة الجهنمى ، وفتنة ليلى المثالية ، وكيد بلقيس إبليسى التخطيط .
لم يقاوم كثيراً وهو يُحشر حشراً فى سيارة صبور الآتى من أعماق الجبل كى يحمله إلى السعير بمصاحبة الشيطانة اللميس ناهدة الصدر بلقيس .
وهكذا وجد نفسه فى رحلة قيادة صحراوية مهلكة بمصاحبة صديقه الأثير أوزو وعدوه اللدود بلقيس ، بينما ذلك (الدلدول) صبور يجلس خلف عجلة القيادة ، وينطلق بهم نحو غيهب الظلم .

يرتب أوزو أغراضه فى حجرة الضيوف الواقعة بجوار المندرة فى الدور الأرضى من بيت الجيايدة المسلح ، البيت الباقى بعد السيول مع قلائل من أقرانه ، ويقول لأحمد دون أن يلتفت إليه ، وهو منهمك فيما يفعله :

- فوق يا أحمد م التوهان اللى انت فيه ده ، الناس دى ديابة هياكلونا أول ما نغفلوا عنهم ، ما تفتكرش إنهم جايينا هنا عشان سواد عيوننا ، لولا حوجتهم لينا كانوا ضربونا بالنار من بدرى .

كان أحمد صامتاً طوال الطريق ، لم يتكلم إلا للضرورة المثيرة للأعصاب ، كان شارداً أغلب الوقت ، يبدو هشاً قابلاً للتحطيم بنبوت أى واحد من أولئك العمالقة المحيطين بهم منذ وصولهم إلى النجع ، وكان أوزو يخشى أن يشجعهم مظهر أحمد المتخاذل بالغدر بهما .

لم يكثر أحمد فى القول ، فقط قال فى اقتضاب :

- ربنا يستر .

فنظر إليه أوزو نظرة جانبية لائمة ، وترك ما بيده ليواجه صديقه ، ونظر ملياً فى عينيه ، ثم قال هامساً :

- أسمع يا أحمد إحنا مش فى رحلة ، لو البقر دول حسوا فينا الخوف ولا المماطلة ولا شموا فينا ريحة الخيبة ولقونا مالناش فى الليلة هتطير رقابينا بكش ف أونطة ومالناش عندهم دية ، إحنا أغراب ف قلب بلدهم ووسط ناسهم ، إمسك نفسك وما توديناش ف داهية .

- الغدا جاهز يا أفندية .

أنتهم هذه الجملة المقاطعة من خارج الدار ، فنهضا مسرعين إلى المندرة كى يصطفا مع صبور ، وبعض الرجال على (طبليتين) عامرتين بطعام من الذبائح يكفى النجع بأكمله .

كان ذلك الجدار الصخرى الحاجب للمقبرة يجثم بكامل ثقله على صدورهم أجمعين ، يحجب عنهم التنفس والنطق والأحلام .
لم تقهره المعاول والمطارق وعضلات الرجلين ، وبدا الحل الأوحد للخلاص منه هو التفجير .
لم يكذب صبور خبراً فأحضر من الديناميت ما يكفى لنسف معبد فيلة ، ولكنّ (دياب) منعه قبل أن يتهور . كان دياب ابن أخته نعمة هو الأقرب إلى صبور سناً ، وهو صديق صِباه ، ورفيق نزواته ، ومالك مفاتيح العالم السفلى للبحر الأحمر بأكمله ، وهو الوحيد الذى يأتمنه صبور على سر كهذا .
كان رأى دياب قاطعاً فى عدم استعمال الديناميت ، فقد كانت المقبرة ترقد فى جب كهف أجوف صار الآن جزءاً من دار صبور الجديدة ، وكان خطر التفجير يهدد بتهاوى المقبرة ، بل وانهيار الكهف بأكمله ، ليدفن أحلامهم تحت جلاميد الصخور وأطنان الرمال ، كانت حسبة القوة التفجيرة ، واختيار أماكن زرع الديناميت تتطلب خبيراً بالمتفجرات ، ربما أحد الأشقياء من المطاريد ، ولكن هذا أخطر عليهم ألف مرة من خطر الديناميت .
كان مأزقاً لا فكاك منه ، حيث إن خبراء المفرقعات لا يستأجرون من (معلمهم) الجالس على المقهى يلعب (جلبهار) على المشاريب

وقد ظلّ موقفهم معلقاً شهوراً عدة ، حتى حسمته بلقيس ـ كعادتها ـ بعد اتصال هاتفى طويل بأوزو.

كان أوزو رجلاً نموذجياً يستحق كل قرش ينفق عليه ، فهو الوحيد القادر على إقناع أحمد بالاشتراك فى الصفقة ، ويملك صلات

بالخارج تزيد من فرص البيع ، كما إنه قوياً ربما بما يكفى لهدم هذا الباب اللعين بكتفه ، وكان ـــ وهذا الأهم ـــ ، مجنداً فى ســلاح المهندسين أبان الحرب ، يشارك كتيبتة فى كسح الألغام الإسرائيلية ، ويتعامل مع المتفجرات ببراعة جعلته يسرح من الخدمــة بدرجــة رقيب مجند ، وكان كالعادة تحت سيطرة بلقيس الكاسحة .

استيقظ أوزو فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة بالرغم مــن ســفرهم الطويل وأيقظ أحمد وراحا يبدلان ملابسهما استعدادا لبدء العمل ، بدا أحمد أكثر حماساً ورباط جأش من الأمس ، نشــطاً مســتعداً للتدمير وللجهد العضلى الشاق ، كأنه أيقن هو الآخر بــأن هــذا الجدار سد يمنع أنهار الخير من التــدفق فى وجــوههم ، صــارت معركته الشخصية ، وصارت البضاعة خاصته ، وبات يشتم أنفاس ليلى العنبرية من فتحة استطاع صبور إحداثها فى الجدار.

خرج أوزو إلى المندرة ليجد نسوة الدار قد بدأن فى نشاطهن اليومى ، فجلس يجاوره أحمد فى انتظار الإفطار حتى هل عليهمــا صــبور نازلاً الدرج ، وتبعته بلقيس و لم يفت أحمد حمرة خديها والكدمــة الخفيفة على جيدها البلورى الطويل ، والناجمة عن إطباقة شــفتين غليظتين عليهما لمدة طويلة .
كان صبور يؤدى دور (جوز الست) ببراعة تثير الحسد فى النفوس؛ فهو لا يفعل إلا ما تأمره به مولاته بلقيس ، باستثناء ممارسة الجنس الذى لا يقلع عنها إلا حينما تنهره .

وهكذا بدأ إفطارهم فى حضور جمع أقل من الأمس ، عرفا منهم دياب وهو شاب فى مثل عمر صبور تقريباً ويبدو عليه المكر وكثرة التجربة وهو الوحيد كذلك العالم بحقيقة الأمر على ما يبدو ، بينما حامد صهر صبور يبدو طيب القلب إلى حد السذاجة ، محدود الذكاء لدرجة الغباء.

وبعد الانتهاء من الإفطار حاتمى الطابع ، واحتساء لترات من الشاى الأسود الثقيل ، وتدخين (قاروصتين) سجائر متباينة الأصناف ، حتى صار أحمد مندهشاً لبلوغ هؤلاء القوم سن الستين بأسلوب حياتهم هذا. بعد هذا كله تحرك الخمسة منتقلين إلى بيت صبور الجديد فى حضن الجبل ــ موطن الحدث ــ يتقدمهم دياب ، ويتبادل التحيات مع كل من يقابلهم ، وأوزو وأحمد يسيران خلفه فى وقار القديسين كأنهما (أصحاب خطوة) ، ريثما يتبعهما بمسافة قصيرة صبور بك وحرمه (المصون) بلقيس صاحبة الحل والربط.

كان انبهار أحمد وأوزو لمرأى المقبرة عبر الفتحة الضيقة فى أعلى الجدار القاسى يبعث الطمأنينة فى قلب بلقيس والتوجس فى قلب صبور ، كان سحر الفراعنة قد وقر فى قلبيهما فصارا عبدين مستعدين لبذل حياتهما فى سبيل الوصول إلى منبعه.

كان أوزو يتحسس الجدار فى جذل كأنه يقبل امرأة حسناء ، كان يشم أصابع الديناميت كأنه يبثها لوعته.

كان أوزو يبدو فى عيونهم كساحر القبيلة الذى إذا استمطر السماء أمطرت، وإذا استنبت الأرض أنبتت.

كان رخاؤهم جميعاً بيديه ، وهلاكهم جميعاً أيضاً بيديه.

إن صبوراً لا ينجب .
تلك الحقيقة أدركها خلال سنوات خيانته للبكرى ، وهو ما أسعده حينها وجعله يستمتع بالجنس كاملاً دون حيطة ، ولكن بعدما تزوج من بلقيس وصار كل أبناء بلدته — سواءٌ المقيمون فيها أم المهاجرون عنها — يلوكون سيرته ، صار هذا الأمر مصدر إزعاج دائم له ، و(معايره) فى الذهاب والإياب لعجزه عن تحقيق ذاته كذكر ، وهكذا صار مريضاً مستديماً لدى أكبر أخصائىّ العقم فى القاهرة دون أى تقدمٍ ملحوظ فى حالته حتى ضاق من كثرة معذبيه ، وتمنى لو كانوا جميعاً قد هلكوا فى السيول فأراحوا واستراحوا .
كان يعانى بينهم معاناة كل مصرى يحيا بين مصريين .
حيث أزمة الشعب المصرى تكمن تحديداً فى فضوله الشديد ، لا يوجد عند المصريين ما يسمى بالخصوصية ، ولا يوجد بينهم من لا يتدخل فى أدق تفاصيل حيوات الآخرين وكأنه يملك أرواحهم ، كثيرون يحيون فى أزمات ولديهم من المشكلات ما قد يدفع آخرين إلى الانتحار ، ولكنهم يتماسكون ويتكيفون مع مشكلاتهم ويتقبلونها ، بينما كل من حولهم لا يتقبلها .

فما كاد صبور يكمل شهرين فى زيجته الشرعية ببلقيس حتى بدأت أخواته يسألنها عن بوادر الحمل ، وبعد مرور أربعة أشهر بدأ رجال العائلة يسألونه، وبعد انقضاء العام صارت جميع المخلوقات تسألهما معاً، وتجاوز كثير منهم وراحوا يقدمون له الوصفات البلدى للعلاج، أو أسماء (شيوخ سرها باتع) ، بينما العقلاء منهم يقدمون

له عناوين أطباء مشاهير فى هذا التخصص ، حتى ضاق هو بكثرة كلامهم أكثر مما ضاق بعقمه ألف مرة .

ولما كان صبور محترفاً فى الاستفادة من كافة الأوضاع ، فلقد أشاع فى الجموع بأنه (مربوط) بعمل من فعل جنية سفلية تسكن فى الجبل ، وهى التى استدعته بعد الطوفان كى يبتنى داراً تجاور كهفها التى تسكنه، وأنه سيذهب إلى الإسكندرية كى يحضر (شيخاً) ليس له مثال ، يحفظ (العهود السليمانية) كلها ، ويقدر أن يصرف الجنية ويعالجه ، وكان هذا الشيخ هو أوزو بالطبع.

كان أحمد مستمتعاً بحالة الهدوء المحيطة بهم وهم يراقبون أوزو فى صمت وهو يجهز المعدات ، ويستعد للتفجير ، كان ادعاء أنهما معالجان روحانيان له مفعول السحر فى طاعة الخلق لهم ، ولانصرافهم عنهم تماماً خشية على أنفسهم من (الرصد) و(اللبس)

كان أوزو قد أحدث بضعة فجوات صغيرة فى الطبقة الخارجية للجدار ، اختار أماكنها بدقة بالغة فى تخطيط استراتيجى الطابع ، نفذها بصعوبة بالغة وجهد مضن ، وزرع بعدها أصابع الديناميت فى هذة الفجوات وثبتها بشريط لاصق إلى الجدار وراح يوصل بينهم بالأسلاك الكهربائية ، وأخيراً أوصل طرفى السلك بالكباس المستقر خارج الكهف خلف جدار حجرة المعيشة الخاصة بالدار ؛ ونظر إليهم جميعاً فى قلق ويده مستقرة على الكباس.

كانوا جميعاً متراصين بجواره ، ملتصقين بالحـــائط ، والأدرينـــالين يتدفق فى عروقهم كأهم مجموعة من (الفداويـــة) يفجـــرون رتـــل مدرعات إسرائيلية فى السويس.
بسمل أوزو .. وحوقل .. وأغمض عينيه ، ثم ... ضغط الكباس.

كان دوى الانفجار مكتوماً باهتاً عما توقع أحمد ، كـــان يظنـــه انفجاراً طائشاً يزلزل الأرض من تحتهم ويرتج له الجبل ووتتطـــاير معه ألسنة اللهب الحارق فى كل اتجاه ، ولكن يبدو أن أوزو أجـــاد فعلته بحق ، غبار كثيف غلف الكهف والدار ووجوههم الشاحبة ، غبار شمل كل الموجودات وألهب العيون والأنوف والشعب الهوائية ، ورائحة البارود المحترق تزيده فتكاً ، فراحوا يتدافعون نحو الخارج ، وهم يسعلون ويتمخطون وتدمع أعينهم ، فقط الغبار ليس أكثر من هذا ، وكان الانفجار مبرراً من قبل سكان النجع ، فلابـــد أن الشيخ أوزو يخرج العمل السفلى من باطن الجبل ، تلـــك الأمـــور معتادة عندهم فيما يبدو.

بعدما هدأت عاصفة الغبار ، وسكنت التربة ، واتضحت الرؤيـــة عادوا ملتهفين إلى الجدار الصخرى ليجدونه مازال مكانه لم يتـــهاوَ وإن تصدع بعنف وامتلأ بالشقوق ، نظروا جميعاً بدهشة إلى أوزو ، وقبل أن يتفوه أحدهم بأية كلمة كان أوزو يتنـــاول المعـــول ، ويتقدم بثقة تجاه الجدار لينهال عليه بعدة ضربات زادت خلخلتـــه وحولته إلى عدة صخور مفككة ، عاونه الجمع على نقلها خارجـــاً بما فيهم بلقيس حتى اتسعت الفتحة وصارت فى حجم الرجل البالغ ، فلم يكذب أوزو خبراً ودلف إليها ، وهم وراءه يلهثون انفعالاً .

حجرة واسعة عالية السقف مزدانة بالزخارف والنقوش على الجدران ، بها صندوق وأوعية فخارية يحيط بهم تماثيل دقيقة الصنع لجعارين ، وعدد هائل من الأصابع المضيئة (الونايس) المصنوعة من الذهب الخالص والتي تبدو كشموس صغيرة تشرق في هذه الظلمات ، راح أوزو يتأملها ملياً ، يقلبها ، يعض عليها بأسنانه ، يختبر حرارتها على خده ، حتى قاطعه صبور بفتحه للصندوق كي يشهق هو ومن خلفه لمرأى تلك المشغولات والأدوات الشخصية الخاصة بصاحب المقبرة ، بل صاحبي المقبرة فهي تضم أدوات ذكورية الطابع كالأسلحة والعصي ، وأخريات أنثوية كالمرود والمشط ، وغيرهم كثير .

لم تتمالك بلقيس نفسها وأسرعت إلى الحجرة الداخلية التي تزين مدخلها التماثيل الأبنوسية ، الحجرة التي كانت تناديها في أحلامها ، الحجرة التي تطمع أن تمنحها مال قارون ، وملك سليمان ، وعمر نوح .

هرعت بلقيس لتروى فضولها الذى ألهبه الظمأ إلى المجد ، لتجد أمام ناظريها الجائزة الكبرى ، تابوتين متجاورين هما ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة في كامل زينتهما ، ويحيط بهما كثير من التعاويذ والتماثيل المصغرة لآلهة مختلفة ، وعدد من الأشياء التي تترجم إلى أموال أسطورية تستحق ارتكاب الجرائم من أجلها .

فهرع دياب إلى الدار ، وعاد مسرعاً يحمل بيده كاميرا (بولارويد) فورية ، وراح يلتقط الصور لكل شيء من حوله ، وأوزو يوجهه لتصوير بعض النقوش ، وعدة زوايا لكل شيء بالمقبرة ، حتى امتلأ حجر بلقيس بالصور السميكة المميزة لهذه الكاميرا ، وظل الجمع

يدورون فى المقبرة ويتأملونها حتى خفت الضوء واستعصت الرؤية ، فطلب صبور منهم الخروج جميعا ، والتشاور فى قاعة الضيافة بالدار، بينما يتسلل لمسامعهم أذان المغرب .

بعدما اغتسل أوزو ورتب أغراضه ، وكذا فعل أحمد ، تحركا لغذاء متأخر الوقت نسبياً ولكنه مقصور على خمستهم فقط هذه المرة ، يتربعون على (طبلية) واحدة ، و بينهم بلقيس تتساءل عن خطوتهم الآتية .

كان أوزو يحمل معه الصور، وتمثالاً دقيق الحجم والصنع لجعران من حجر ما كان ضمن المجموعة المجاورة للصندوق ، أخذه معه كدليل على أصالة المجموعة المعروضة فى الصور ، وكان مصراً على الرحيل بسرعة لأن وجودهم لا يعنى شيئاً ، بينما سفرهم يعنى البدء فى البحث عن مشترٍ فى عجالة ، لينال كل واحد منهم (حسنته).

كان كلامه منطقياً ووافقه أحمد السيد ، وطلب أن يتعاونوا على إخفاء المقبرة حتى وقت البيع ، ولكن صبوراً كان عنده حل أسهل لإخفاء باب الكهف بأكمله ، بنقل خزانة الملابس من حجرة الضيوف ووضعها أمام الفتحة لتخفيها ، خاصة وأن صبور يحيا هو و بلقيس فى هذه الدار وحدهما ، ولا يستقبلان ضيوفاً إلا فى بيت العائلة ، وهكذا اتفق الجمع على سفر أحمد وأوزو فى الصباح الباكر ، وطلب أوزو من صبور كتمان الأمر تماماً ، وعدم القيام بأية محاولة للبيع من طرفهم حتى لا يذاع سر المقبرة ، وكان لا يملك الشجاعة لذلك فهو لا يجرؤ على عصيان بلقيس.

بلقيس التى ما أن اطمأنت على كنزها حتى التفتت إلى أحمد كى تقهره ، كان صنبور ودياب يجلسان فى الحجرة التى بها باب المقبرة يحرسان كنزهما ويتناقشان ، بينما أوزو يجلس خارج الدار أمامهم يجرع الشاى الذى صنعه على (الراكية) ، ويدخن ويتأمل سكون الليل فى حضن الجبل ، وهكذا كانت فرصة بلقيس لتختلى بأحمد فى حجرته التى أعدتها لاستقباله فيها هو وأوزو .

كان أحمد منهمكاً فى تأمل الصور ومحاولة استنباط أية معلومة تاريخية عنها ، ولكنه مثلهم جميعاً كان شديد الجهل بالثقافة الفرعونية ،لا يعرف عنها إلا القشور .

كانت بلقيس تتسلل إلى حجرته كأنها لبؤة تترصد غزالاً غافياً ، كانت فى ثوبها الحريرى المطرز تتلألأ كحوريات الأحلام ، كانت بلقيس تريد أن ترى الرغبة فى عين أحمد تتأجج ، تريده أن يتقرب منها ، يتوسل إليها ، يتحرش بها ، بل يحاول اغتصابها حتى تصفعه على وجهه ساعتها وتعطيه درساً فى الأخلاق ، وتجعل صبوراً يجلده فى ساحة البلدة ، ما كان يرضيها أقل من هذا بعدما صدها أحمد مرات ومرات فى السابق حينما كانت على أرضه ، اليوم هو على أرضها ولا بد أن يلعب بقواعدها هى .

كان أحمد يدرك ذلك جيداً وهى تسأله فى غنج عن توقعاته لمبلغ البيع ، تتأود وهى تتأمل الصور فى يده ، ثوبها يضيق على جذعها مع كل انثناءة ليبرز استدارة ردفيها ، عنقها الطويل يزينه الكردان

الأثرى ليزيده غموضاً، ذات الكردان الذى كان يستقر على عنـق تلك المرأة الفرعونية فى تابوتها .

كانت تمارس على أحمد إغواء لم تمارسه على رجل من قبله حتى صبور نفسه ، ولكنه ما زال إغواء رخيصاً فظاً ساذجاً ، كله جسدى وكأنها تعلمت الإغواء من نجمات الإغراء فى السينما المصرية ، النجمات المسنات ، مترهلات الجسد ، مجعدات البشرة ، المثيرات للشفقة أو الاشمئزاز ليس إلا.

وكما فشلت نجمات خريف العمر فى أداء أدوار الإغراء بمصداقية ، فشلت بلقيس أيضاً فى إغواء أحمد السيد الذى ضحك فى وجهها ، وأخبرها أن تطمئن ، واستأذن مغادراً الدار باحثاً عن أوزو.

كان أوزو يستمع إلى الراديو ويصنع مزيداً من الشاى فى ذات مجلسه ، فجلس أحمد بجواره وكاد يتحدث معه إلا أن أوزو نهره عن الكلام بأشارة خفية ، وهو يمنحه كوباً من الشاى ، وأغلق عينيه وتظاهر بالنعاس ، ظل أحمد السيد صامتاً لبرهة يستمع إلى الراديو هو الأخر ، ويجرع الشاى حتى جاءت بلقيس فى ثوب آخر أكثر رقياً واحتشاماً لتدعوهما للعشاء .

يقول أوزو وهو يحزم حقائبه ، ويأمر أحمد بالمثل :

— الناس دى ناوية غدر ، إحنا لا زم ننفد بجلدنا حالاً .

أحمد مندهشاً :

— فى أيه مش تفهمنى .

ولم ينطق أوزو بكلمة إلا بعدما اطمأن على الحقيبتين المحزمتين ، وعلى استعدادهما للرحيل المباغت فجلس على السرير ، وأشعل سيجارة بقداحته (الرونسون) ذهبية اللون والتي جاء بها من اليونان ولا يستعملها إلا في مناسبات معدودة ، وقال :

- أنا كنت سايبهم يتكلموا وعامل نفسي مش سامعهم ، دياب ده هيرجع (دهب) دلوقتي ، وهو عنده ناس دايخة على حاجة فرعوني ومضمونين ليهم ، وأحنا كده بقى مالناش لازمة عندهم ، وأحنا ف قلب دارهم وناسهم ما نضمنش هيعملوا فينا إيه .

كان أحمد يصطدم بالحقيقة تلو الأخرى ، وأسقط في يده ، فقال لصديقه بهمس مذعور :

- قوم بينا دلوقتي ، مستني إيه ؟
- مستني الليل يكبس والبلد كلها تنام ودياب يكون ركب الطريق ، نقوم إحنا نطلعوا من سكات ونشوفوا أي حاجة تطلعنا م البلد دي على خير . .

لم يكن أوزو ينوي مغادرة المولد بلا حمص ، كان يريد سرقة أي شيء من المقبرة خف وزنه وزاد ثمنه ، كانت (الونايس) الذهبية تداعب أحلامهم ، كان عددهم 365 وناسة بعدد أيام السنة كلها، كان قد أحصاها مثلما حصر كل محتويات المقبرة ، كانت الونايس كثيرة العدد وما كانوا يلاحظون اختفاء قليل منها ، وهكذا تظاهر أوزو وأحمد بالنوم حتى تجاوزت الساعة منتصف

الليل ، فقام أوزو فى هدوء كى يذهب إلى الحمام المجاور لغرفة المعيشة وتسلل بالقرب من حجرة نوم صبور حتى أدركت أذناه تأوهات بلقيس الملتاعة وهدج أنفاس صبور ، فعاد مسرعا لأحمد كى يعلق حقيبته على كتفه ويأمر أحمد بالمثل وينطلق به خارج الحجرة حتى وصلا إلى الفتحة التى فتحها بنفسه ظهر اليوم .

يهمس أحمد : ما تيجى نمشى على طول بدل ما حد يكبس علينا وإحنا جوه .
أوزو حانقاً : ونسيب كل ده ونطلع كده سلط ملط ، وبعدين اطمن صبور و بلقيس ظايطين دلوقتى ولا هيحسوا بينا حتى لو فجرنا ديناميت تانى .

لم يعلق أحمد ، وعبر الفتحة مهتديًا بضوء باهت مبعثه لهيب قداحة أوزو الذهبية ليقتحم معه حرمة الموتى ، ويخالف القانون ويغدر بمن أطعمهما وآواهما ، ثم يفر مع الفجر كأنه بطل فيلم أمريكى سخيف ، كانت تلك الأفكار تعصف بعقل أحمد ويدوى قلبه من الرعب .
كانت (الونايس) تتألق بضوء خفيف ، دافئ ، حنون على قرنية العين بدرجة طغت على ضوء قداحة أوزو فناولها لزميله ، وراح يحشر فى جيوبه ما طالته يداه من هذه الأصابع سحرية الخواص التى يضوى الواحد منها فى قبضة أوزو فتظهر تفاصيلها التشريحية كأنها أشعة (رونتجن) ، كان يبدو لأحمد أن أوزو سيستمر فى حشرها فى طيات ثيابه حتى تنفد الكمية أو أن تقوم الساعة ، وبغتة سطع فى وجهيهما ضوء قوى مبهر عشى بصرهما لثوانى وصرخ أوزو فجأة

كمن لدغه عقرب ، وسمع أحمد صوت أزيز وشعر بقطرات من سائل لزج تتناثر على وجهه ، كل هذا فى لحظة واحدة لتتضح له بعدها الرؤية جلية واضحة لا تثريب فيها .

كان صبور واقفاً أمام مدخل الكهف يسد عليهم منفذ الهرب الوحيد بصدره العريض العارى قوى البنية ، والعرق يغمر جسده بأكمله ، يرتدى سروالاً غير محكم الربط ، حافى القدمين ، يبدو كمقاتلى الحروب الهمجية ، بربرياً يذبح خصومه الأقوياء ويأكل أكبادهم النيئة ، ملامحه تكون لوحة فى غاية الإتقان تعبر عن الغضب ويده تصوب نحوهما مسدس (حلوان عيار 9 مم) مزود بكاتم صوت يشى بتاريخ أسود من الاغتيالات ، وتتصاعد الأبخرة من فوهته الغليظة قبيحة الشكل .

ومن خلفه تقف الملعونة بلقيس فى ثوب نوم أحمر اللون شديد الشفافية لا ترتدى شيئاً سواه فلا يستر من عوراتها شيئاً بل يزيدهم تجسيداً ، وتحمل فى يدها كشافاً يدوياً ضخم الحجم يلقى ظلالاً مخيفة على ملامح وجهها ، لتظهر مع شعرها الثائر وحاجبيها اللذين أزالت نصف سمكهما بالموس كالشيطانيين فى رسومات مطربات موسيقى الميتال (موضة العام) وموديلاتها ، وراحت تضحك فى شماتة ضحكة طويلة ماجنة مرعبة تنذر نهايتها بسفك الدماء .

كان أحمد يدرك أنها النهاية ، لقد تم ضبطه متلبساً فى مسرح الجريمة يتأهب للهرب بغنيمته ، ويا ليتها كانت شرطة الآثار تلك التى

داهمتهما ، فما كان مصيرهما يكون بمثل هذا السوء لحظتها ، أدرك أحمد أنه يواجه صبوراً المسلح الغاضب لحد الجنـــون ، بينمـــا أوزو ملقى على الأرض يتأوه ، والدماء تغرق جانبه الأيســـر و بلقـــيس تقف عند رأسه لتضحك وتستمر فى الضحك .

صاح فيه صبور وهو يركله فى موطن الجرح بوحشية :

– سرقت إيه يا بن الكلب يا وسخ .

لم يجب أوزو واستمر فى التألم والصراخ فجالت عينـــا صـــبور فى المكان لتستقرا على الونايس ، وراح يعدهم بعينيه ليدرك النقص فى عددهم ، ثم استأنف :

– نهار أبوك مش فايت سرقت م الونايس ، عايز تبـــوظ لى البيعة ، ما تعرفش أن الونايس دى مجموعة على بعضـــها ، ما تتباعش غير وهى كاملة ولو نقصت واحدة بس يبقـــى ما لهاش عازة .

كان يكلمه وهو يقترب منه حتى انحنى عليه ، وقبض علـــى ثيابـــه وشرع يفتشهم فى شراسة الذئاب ، ويستخرج منه تلك المصـــائب التى أدت للخراب والدم وهو يسدد المسدس إلى جبهته .

ثم أخيراً نطقت بلقيس لتقول بلهجة تقطر سخرية وشماتة :

– كنتم فاكرينا أجفال ، هنسيبوكوا تُهربوا بالكتر اللى لجيناه ف أرضنا ، بقى بعد ما أمناكم تخونونا ، ع كـــل حـــال الحق هيرجع لصاحبه وإحنا لينا صرفة فيه بعيد عنيكم.

كان أحمد السيد يقف مذهولاً لم ينبس ببنت شفة ، لا يعرف ماذا يفعل ؟ يبحث ببصره عن منجى كالمجذوب، حتى فتح أوزو فمـــه

ليهمس بشيء ما ، فاقترب منه صبور لينصت السمع ولكــن أوزو ـــ ربيب الحوارى ـــ لم يكن صيداً سهلاً أبداً.
لقد بدا لأحمد صوت تحطم أنف صبور الذى صدمته قبضـة أوزو اليسرى ـــ المنطلقة كالطوربيد ـــ أقـوى مـن صـوت تصـادم السيارات المسرعة بعضها ببعض ، ثم على الفور سمع التكة المعدنية المميزة لفتحة المدية (قرن غزال) التى لم يكن يعرف أن أوزو يحمـل منها واحدة ، وفى ثانية واحدة وجدها تشق ذراع صبور بـالطول ليصرخ كامرأة تعانى عسراً فى الولادة ، ويطير المسدس مـن يـده وبعدها يجد أوزو يلقى بثقله كله على صبور ، ويلـتحم معـه فى صراع عنيف بعدما أصبح كل منهما مصبوغاً بدمائه ، لا ترى لـه ملمحاً واحداً ، وسارع أحمد زاحفاً على الأرض لالتقاط المسـدس من خلف الصندوق الخشبى الكبير ، وما كاد يرفع عينيه حتى وجد نفسه يحدق فى فوهته المخيفة المصوبة إلى جمجمته ، ويطل من أعلى وجه بلقيس واثقاً مسيطراً يأمره بالثبات ، وصـرخاتها تـأمر أوزو بالاستسلام.
كان أوزو قد سلخ جلد صبور من كثرة الجـروح القطعيـة الـتى أصاب بها جذعه ، ولكنه بالرغم من هذا إلا أنه ظل متمالكاً نفسه واقفاً على قدميه ، بينما أوزو يترنح فى وقفته ، و بلقـيس واقفـة تبدل اتجاه مسدسها بين وجهه ووجه أحمد السيد الذى بـدا لـه المشهد طويلاً ممتداً لن ينهيه إلا تدخل ملاك الموت لقبض أرواحهم أجمعين.
أحمد السيد ...
الذى هام بليلى وتركها تذوب من بين أنامله دون أى حراك.
الذى طاردته بسمة فتركها تقتنصه دون أدنى محاولة للفرار.

الذى انتزعه أوزو من بيته فى الإسكندرية الرائعة كى يلقى بـــه فى هذا الجب الخانق المظلم فى هذا المكان غير المدرج على أية خارطـــة ليتركه ويموت فى انتظار لحاقه به بعد خمس دقائق.

أحمد السيد الذى يقبض بيده على قداحة (رونسون) ذهبية عيـــار 18 ، كانت ملكاً لأوزو الذى تهاوى على ركبتيه أمام صبور الذى لا زال قائماً على قدميه برغم جراحه التى تحتاج إلى عشرة أمتار من الخيط الطبى لتقطيبها.

أحمد السيد الجالس على الأرض أمام عاهرة تملك مسدســاً فتــك بصاحبه ، ويستدير كى يقتله هو الآخر.

أحمد السيد الجالس بجوار صندوق متفجرات بـــه دســـتة أصـــابع ديناميت باقية منذ حفل البارحة.

هل كانت البارحة حقاً. لا يهم فقـــد قـــال ديـــاب إن الـــتفجير العشوائى للديناميت سيؤدى إلى هدم الكهـــف فـــوق رؤوســـهم أجمعين.

قالها فى ثقة بالغة كأنه هدم جبلين من قبل.

هل كان محقاً فى ذلك؟..

كذا تساءل وهو يشعل قداحته.

{ تمت }

كانت ليلى تملك حواسه الخمس ، وتشبعهم.
حسنها الأسطورى يبهر بصره.
صوتها ـ رنم الملائكة ـ يطرب مسامعه.
عطرها ـ فردوسى الرائحة ـ يثير خياشيمه لأبعد مدى.
ملمسها الحريرى يبعث رجفة النشوة فى أعصابه.
طعمها الذى لم يكد يتذوقه يشبع قلبه النهم للحب.



Bibliotheca Alexandrina
1492640

غلاف: أمير مصطفى